طبعة ثانية
مزيدة ومنقحة

الإسماعيليون

بين
الاعتزال والتشيع

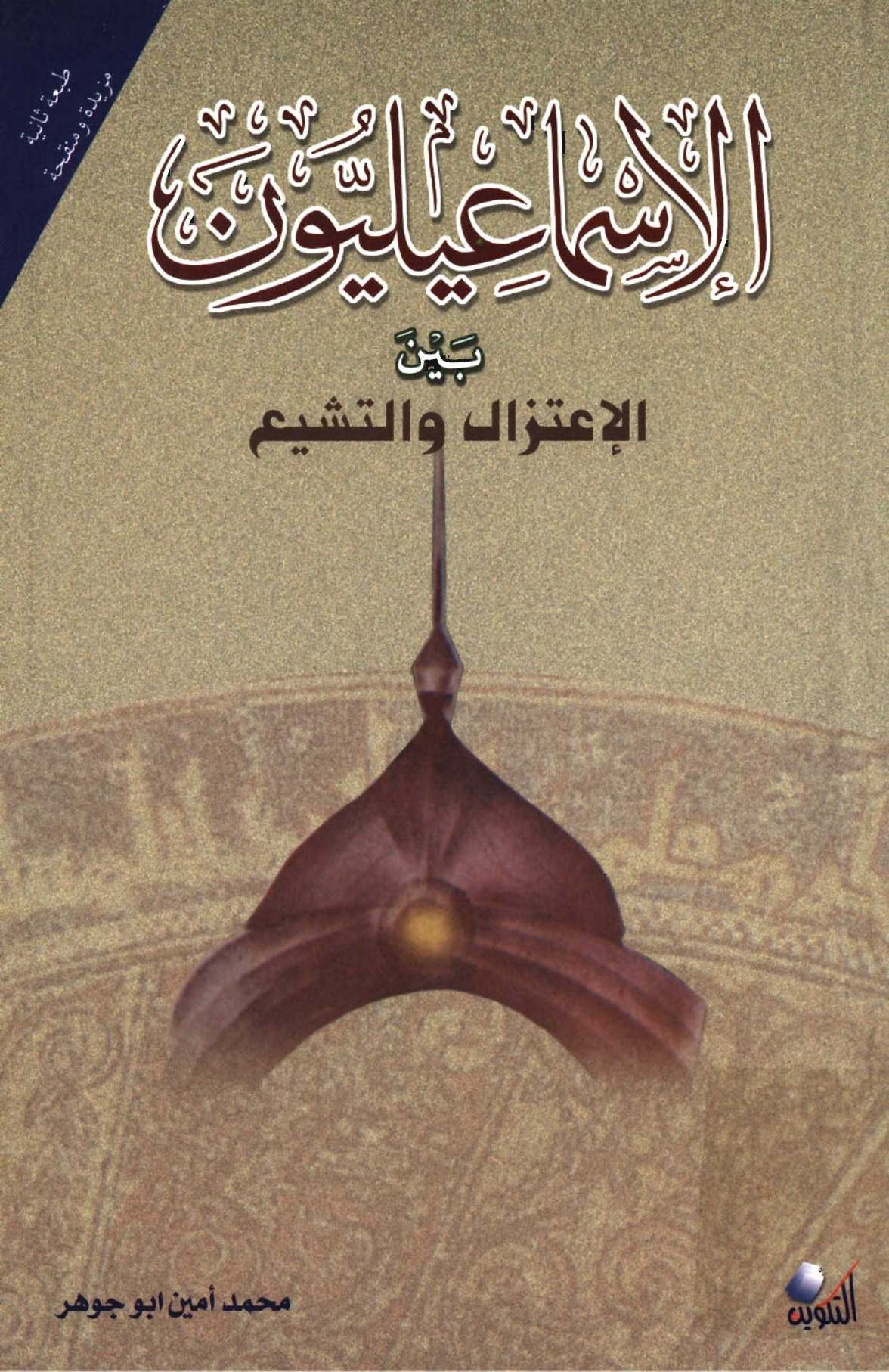

محمد أمين ابو جوهر

التنوير

شكلت الحركة الإسماعيلية في سياقها التاريخي حركة إجتماعية شمولية واسعة، وأمتد نشاطها إلى مناطق عديدة من البلدان العربية - الإسلامية.

رفعت شعارات ضد الظلم، وانضوى تحت لوائها الكثير من المقهورين، والمعدمين، وقادة الفكر والمبدعين ، منهم حميد الدين الكرماني وابن سينا وأبو حاتم الرازي ونصير الدين الطوسي... وغيرهم.

أقامت الحركة دولاً كانت رائدة في مجال بناء العلاقات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية على أسس كفلت العيش الأفضل للأغلبية الساحقة من مواطنيها دون التمييز بين فئات هذا المجتمع المختلفة.

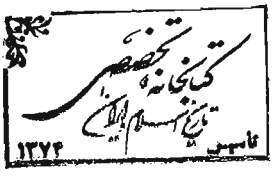

الإسماعيليون

بين الاعتزال والتشيع

دراسات	

الإسماعيليون

بين الاعتزال والتشيع

محمد أمين أبو جوهر

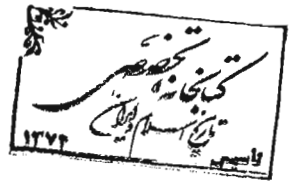

الطبعة الأولى : 2004

الطبعة الثانية: 2006

© جميع الحقوق محفوظة

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - هاتف 2236468 - 094330989

البريد الالكتروني: taakwen@yahoo.com

محمد أمين أبو جوهر

الإسماعيليون

بين الاعتزال والتشيع

الإهداء

إلى والدي أمين برجس الذي جاع كي أتعلم!

تعلمت أن قطرة الماء الوحيدة تجف. أما إذا تجمعت مع غيرها، فعندها سيتشكل سيل جارف، وقد يصبح شلالاً يولد نوراً يضيء دروب المتعبين. كما أن الماء الراكد سرعان ما يتطرق إليه الفساد!

المقدمة

منذ أن بدأ الإنسان يستغل أخاه الإنسان، ويظلمه، أخذ المظلوم يتململ ويتمرد، ودعته شدة الظلم إلى إعلان الثورة والإطاحة بظالميه.

تبين وقائع التاريخ أنه لم يخل ولن يخلو عصر، أو مصر، من حركة ثورية مهما تعاظم جبروت الظالمين وبطشهم، وتزداد القناعة لدى المظلومين أكثر فأكثر أن وحدتهم، وتفانيهم في النضال هي السلاح الأقوى والذي لا ينبو!

إن تاريخنا العربي هو جزء من التاريخ العام للبشرية، وقد بدأ فيه المظلومون النضال ضد ظالميهم منذ عصور موغلة في القدم، فأخبار إصلاحات الملك أوركاجينا[1]، في مدينة لغش (جنوبي العراق) تعد أقدم وثيقة تاريخية في محاولات الإصلاح الاجتماعي، فقد قام أوركاجينا سنة ٢٣٧٥ ق.م بأول انقلاب اجتماعي في تاريخ الشرق الأدنى والعالم، وظهرت لأول مرة كلمة (أمارجي: الحرية) في وثيقة مكتوبة. ووزعت أراضي المعابد على الفلاحين، وكانت الأكثر اتساعاً وخصباً. وحاول الصعاليك، في شبه الجزيرة العربية، وعلى طريقتهم الخاصة، النيل من الظالمين لمصلحة المستضعفين.

وبانتشار الإسلام، وقيام الدولة العربية - الإسلامية، ازداد الفعل الاجتماعي، وتبلورت القوى المحركة، في المجتمع بشقيها: المناضل لرفع الظلم والمعاناة عن المضطهدين، أو الهادف إلى الحفاظ على امتيازات المستغلين القائمة على السيطرة والاستعباد. فظهرت حركات شعبية واسعة تصدت لقوى الطغيان على نحو أو آخر. تعتبر الحركة الإسماعيلية وبحق واحدة من حركات معدودة أوجدتها القوى المناضلة، سواء من حيث اتساع الرقعة الجغرافية التي غطتها، أو من حيث القوى المشاركة فيها، إضافةً للتأثيرات التي خلفتها ليس على المستوى العربي الإسلامي فقط، بل على نطاق أكبر وأوسع. وقبل الدخول في ذلك أرى أنه من المفيد الإطلاع على الأوضاع الاجتماعية - الاقتصادية التي كانت سائدة قبل وإبان ظهور وانتشار هذه الحركة.

---

[1] تاريخ العراق القديم - طه باقر

الفصل الأول

الإسلام

- العرب قبل الإسلام
- ظهور الإسلام
- وفاة النبي وخلافة عثمان
- علي بن أبي طالب
- الدولة الأموية
- الجزية والخراج
- الإقطاع
- الدولة العباسية

العرب قبل الإسلام:

كانت الجزيرة العربية إحدى محطات طريق الحرير البري أو طريق العطور البري، وكانت بضائع الصين والهند وفارس وشرق أسيا عموماً تأتي للجزيرة العربية، ليتم نقلها إلى بلاد الشام، وموانئ البحر الأبيض المتوسط، فازدهرت بسبب ذلك العديد من المدن كتدمر، وغيرها. وبحلول القرنين السادس والسابع الميلاديين ظهرت فئة من كبار التجار العرب، وكانت تنمو نمواً متسارعاً، وتحمل في عوامل تكوينها الاجتماعي ولادة مجتمع العلاقات الاجتماعية التجارية. وكانت هذه الفئة هي الجنين الطبقي لذلك المجتمع. أما في مكة تحديداً، فقد ضم مجتمعها فئةً قليلةً (ملأ قريش) تمتلك الثروات الطائلة: نقدية، وعينية، وأراضٍ واسعة. وقد حصلت على أموالها عن طريق الاحتكار، والتجارة، والربا، وعن طريق استثمار الفقراء، والعبيد(أي الأغلبية الساحقة من الناس)، في تربية المواشي، أو في زراعة الأرض وجني محصولها.

كانت قريش تتألف من فروع عديدة أفقرها الفرع الهاشمي الذي تحدر منه النبي (ﷺ)، وابن عمه علي بن أبي طالب. ولم يكن لهذا الفرع المسؤوليات الخطيرة، أو الهامة، في حكومة الأغنياء، حكومة ملأ قريش وتجارها، وملاك قوافل تجارتها، وعبيدها. أما القبائل العربية الأخرى، فكانت تعيش حالة من الفرقة والشرذمة والتقاتل فيما بينها، وكان لكل قبيلة آلهتها الخاصة بها.

ظهور الإسلام:

ولما بعث محمد نبياً، ناصره الفقراء والمستضعفون وفي مقدمتهم الهاشميون. وقد هال ذلك ملأ قريش، فعادى محمداً (ﷺ) وحارب أتباعه اقتصادياً، وسياسياً، وألب عليهم القبائل العربية.

تمكن المسلمون لاحقاً من الانتصار على ظالميهم، وفتحوا مكة، وانتشر الإسلام، في شبه الجزيرة العربية، ودانت له قبائلها ،وشكل الدين الجديد القائم على التوحيد ،الأساس النظري لوحدة القبائل العربية .

وفاة النبي:

تحركت نوازع الصراع على السلطة، بعد وفاة النبيﷺ مباشرة، وظهرت إلى السطح فجأة رواسب الصراع القديم بين مكة والمدينة، من جهة ، وبين قبائل عربية أخرى، كما ظهرت أيضاً المشاعر الطبقية التي كان يتحسس بها الأنصار من قبل، و تنبهت رواسب الفوارق القديمة، في الجاهلية بين بني هاشم من جانب، وبين فروع قريش الأخرى من جانب آخر، وارتد العديد من القبائل عن الإسلام .

تحول ظاهر الصراع من كونه صراعاً بين المهاجرين والأنصار على السلطة، إلى كونه صراعاً بين الهاشميين، وسائر الفرقاء، على من هو صاحب الحق بالخلافة؟ وكانت الخلافة بحد ذاتها - كمنصب ديني - تبدو أنها المحور الذي يدور حوله هذا التناقض، في حين أن الدوافع الاجتماعية، والطموح إلى ما يعنيه هذا المنصب من امتلاك زمام السلطة، لتحقيق أهداف كل فريق هي التي كانت تكمن وراء هذا التناقض! فقبل أن يوارى جسد النبي في الثرى بويع أبو بكر بالخلافة، واعترف عمر بن الخطاب بأن البيعة كانت (فلتة)[1] ، وحذر من تكرارها! ثم تولاها عمر ومن بعده عثمان بن عفان. وأعلن عمر صراحة لعبد الله بن عباس: (أن قريشاً كرهت أن تجتمع لبني هاشم النبوة والخلافة).

خلافة عثمان بن عفان:

اتبع عثمان سياسة مكنت التيار القريشي القديم (ملأ قريش)، ومن سار معه، من تحقيق مطامحه الاجتماعية، على حساب التعاليم الثورية التي بشر بها الإسلام، وعلى حساب الجماهير الفقيرة، وكان الفرع الأموي من قريش بزعامة أبي سفيان، في مقدمة الذين استفادوا من هذا التطور الاجتماعي، ورأى في تولي عثمان للخلافة الفرصة الملائمة لاستعادة المكانة التي فقدوها منذ ظهور الإسلام. فقد وقف أبو سفيان على قبر حمزة بن عبد المطلب، قائلاً: (رحمك الله

---

[1] شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد.

يا أبا عمارة، لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا!)[1] ولتحقيق طموحات ذلك التيار أتبُعَتْ أساليبُ، منها:

استخدم عثمان الكثير من أقربائه ولاةً وحكاماً، وقد استبدوا بالأمر دونه. ولم تكن أموال الجزية والخراج بمجملها تذهب إلى بيت مال المسلمين، إنما يذهب معظمها إلى هؤلاء الحكام أو الأقارب، فعلى سبيل المثال تزوج مروان بن الحكم ابنة عثمان، فسلمه الأخير (خمس غنائم إفريقية، وقد بلغت مائتي إلف دينار)[2].

أقطع كثيراً من الصحابة مساحات واسعة من الأراضي التي كانت ملكية عامة لبيت مال المسلمين، والتي بلغ دخلها خمسون مليون درهم في عهده وكان أول من أقطع أراضي العراق!

وهكذا تبدت مظاهر الثراء والبذخ، على عدد كبير من بني أمية، ومن الصحابة، وفيما يأتي غيضٌ من فيض من الشواهد:

نقل عن عبد الله بن عتبة، أن عثمان بن عفان يوم قتل كان له عند خازنه من المال (خمسون ومائة ألف دينار، وألف ألف (أي مليون) درهم، وقيمة ضياعه بوادي القرى، وحنين، وغيرهما مائة ألف دينار، وخلف خيلاً وإبلاً)[3].

بنى الزبير بن العوام لنفسه (عدة دور فخمة بالبصرة، والكوفة، ومصر، والإسكندرية، وعندما تحضره الوفاة يحصون في ثروته: خمسين ألف دينار، وألف فرس، وألفاً من العبيد والإماء)[4].

أما طلحة بن عبيد الله التميمي، فكان دخله، من ممتلكاته بالعراق وحدها ألف دينار في اليوم الواحد، عدا عن الدور في العديد من المدن.

---

[1] الإمتاع والمؤانسة ج٢ أبو حيان التوحيدي - ص ٧٥

[2] الملل والنحل - الشهر ستاني

[3] مروج الذهب -ج٢- المسعودي- ص٣٤٠

[4] المصدر السابق ص ٣٤٢

كان لعبد الرحمن بن عوف: مائة فرس، وألف بعير، وعشرة آلاف شاة من الغنم. وعندما توفي قدرت ثروته بأكثر من مليونين ونصف من الدراهم. وعندما أحضرت لعثمان بن عفان بعض أكياس دنانير ودراهم عبد الرحمن بن عوف، بعد وفاته، قال عثمان: إني لأرجو لعبد الرحمن خيراً، لأنه كان يتصدق، ويقري الضيف، وترك ما ترونه!)[1].

كانت ثروة زيد بن ثابت من الذهب والفضة: (ما يكسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال، والضياع بقيمة مائة ألف دينار)[2].

تفاقم استياء الناس، في العراق، من عثمان ووالية، ومن قريش الذين استولوا على سوادهم، واتخذوه بستاناً لهم، وواصل الثائرون الاجتماعات، في بيوتهم، ولعن عثمان على ملأ من الناس، ولجّ هؤلاء وأولئك فيما ارتكب من عظائم الأمور[3]. كما ثار عليه أهل مصر.

خلقت تلك التحولات الاقتصادية شرخاً عميقاً، في المجتمع، بين أكثرية فقيرة مسحوقة، وبين أقلية ذات ثراء فاحش، وفجرت صراعاً حاداً بين جهات عديدة، ووصل الأمر ببعضها إلى قتل الخليفة عثمان بن عفان!

علي بن أبي طالب (ع):

نشأ علي وشبَّ في بيت ابن عمه رسول الله، وظل ملازماً له حتى انتقل النبي إلى الملأ الأعلى. وكان يقول: (وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو، والذراع من العضد). (ما أعرف أحداً من هذه الأمة عَبَدَ الله بعد نبينا غيري، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين). وقد شهد النبي أنه مدينة العلم وعلي بابها.

كان قرماً صلباً لا يخشى في الحق لومة لائم. ولم يقصر الدين على العبادة، وإجراء الأحكام، بل جعله موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل. وقد شهد له النبي (ص) بأنه أقضى الصحابة.

---

[1] المصدر السابق - ص ٣٤٩

[2] المصدر السابق - ص ٣٤٢

[3] الطبري -ج١- حوادث سنة ٣٢ هجرية

بويع بالخلافة بعد الحركة المسلحة التي أودت بحياة عثمان سنة ٦٧٥م بايعه الفقراء والمستضعفون، وفي مقدمتهم أكثر الصحابة فقراً لأنهم رأوا فيه الضمانة لاستمرار النهج الاجتماعي الذي شهدته شبه الجزيرة العربية على يد دعاة الإسلام الأوائل، وكي لا يعود الملأ من قريش، واغنياؤها الذين التحقوا بالإسلام، عندما لم يجدوا طريقاً لمقاومته، للإمساك بالسلطة ثانية تحت رايات الدين الجديد.

قال في اليوم الثاني من توليه الخلافة: (يا أهل الكوفة إن خرجت من عندكم بغير رحلي وراحلتي وغلامي فأنا خائن).

أعلن ما نسميه اليوم (الثورة الشاملة) ضد الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي كانت محل نقده ومعارضته، على عهد الخليفة عثمان. فعزل ولاته على الأقاليم وردّ الأراضي التي أقطعها الخليفة السابق لولاته، إلى بيت مال المسلمين، وأعلن أن المال مال الله، فألغى التمايز في العطاء، وقدَّرَ توزيعه بالسوية.

العامة عماد الأمة:

طلب في عهده إلى الأشتر وإليه على مصر أن يتوصى بالعامة، فقال له: «وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل وأجمعها لرضا الرعية، فأن سخط العامة يجحف برضا الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة، وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالإلحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين وجماع المسلمين للأعداء، العامة من الأمة، فليكن صفوك لهم، وميلك معهم».

ويتابع أمير المؤمنين قائلاً : (ثم إن للوالي خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف في معاملة، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال). (ليكن آثرهم عندك أقولهم بمرِّ الحق لك..، ثم رضهم على أن لا يطروك، ولا يبجحوك ببطال لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهوة وتدني (تنقص) من العزة).

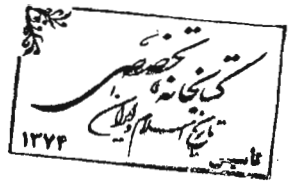

اثمن رأس المال!:

أدرك الإمام علي (ع) بثاقب نظره عظمة الإنسان، وإنه أثمن رأس مال، فقال في وصيته للأشتر: (وأشعر قلبك الرحمة بالرعية واللطف بهم والعطف عليهم ولا تكن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإن الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق).

أخاف نهج علي (ع) الظلمة والظالمين ولكنهم أخفوا ذلك، ورفعوا شعار (الأخذ بثأر عثمان)، وشنوا الحروب وأكثروا من الدسائس والمؤامرات، حتى تمكنوا من اغتيال الخليفة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

تؤكد وقائع التاريخ أن معاوية بن أبي سفيان لم يقتص من قاتلي عثمان رغم امتلاكه زمام الأمور كلها بعد مقتل علي، بل وجّه كل نيران حقده وبطشه ضد شيعة علي ومحبيه.

إن معين علي بن أبي طالب ثر لا ينضب، ولا ينفك الشارب منه عن الخروج بجديد ينفع الناس وكل ذي حياة، وتبرهن على عظمة ذلك الإنسان.وفيما يأتي بعض الرشفات من رحيق ذلك السلسبيل :

«وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة. ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد و أهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا».

صاح أحد الخوارج إلى علي: (قاتله الله كافراً ما افقهه)، فوثب أتباع الخليفة ليقتلوه فنهاهم عنه وهو يقول: (إنما هو سبٌّ بسبٍّ أو عفو عن ذنب)

يطلب من أبنائه عدم إنزال العقاب بقاتله ابن ملجم قبل معرفة نتيجة الاعتداء، بل يوصي قائلاً: (وأطيبوا طعامه وألينوا فراشه فإن أعش فأنا وليُّ دمي إما عفوت وإما اقتصدت، وإن متُّ فألحقوه بي ولا تعتدوا فإن الله لا يحب المعتدين).

الدولة الأموية:

عُيِّن معاوية بن أبي سفيان أميراً على الشام زمن الخليفة عمر بن الخطاب، وطوال عهد الخليفة عثمان بن عفان، كان الحاكم المطلق على سورية، وانشأ جيشاً خاصاً به. وفرض حماية جمركية على المنتجات السورية، وفي عام ٦٦٠م أعلن نفسه خليفة وأخذ البيعة له من أهل الشام في مدينة القدس. وظل في منصبه حتى سنة ٦١ هجرية ٦٨٠م، وأسس الدولة الأموية سنة ٤١ هجرية ٦٦١م.

أصبح في حيازة معاوية وأسرته أراضٍ واسعة كانت قبل الفتح العربي - الإسلامي ملكاً لإمبراطور بيزنطة، وأرستقراطيتها، وكان من المفترض حسب نظام الأراضي، في الإسلام أن تكون ملكاً عاماً للدولة الإسلامية.

ومعروفة هي تلك المحاورة التي جرت بين أبي ذر الغفاري أحد كبار الصحابة، وبين معاوية بن أبي سفيان.

أبو ذر: المال مال المسلمين، وليس لك أن تختزن منه شيئاً وقد خالفت الرسول، وأبا بكر، وعمر، وكنزتها لك ولبني أمية. لقد أغنيت الغني يا معاوية، وأفقرت الفقير. فيجيبه معاوية: إنما المال مالنا، والفيء فيئنا، فمن شئنا أعطيناه، ومن شئنا منعناه.

أطلق بنو أمية: (الحرية لمن أراد من العرب المسلمين أن يقتني ما شاء من الأراضي خارج الجزيرة العربية، بعد أن كان ذلك ممنوعاً كما كان يقال في أيام أبي بكر وعمر)[1] وهكذا فقد انتقلت أخصب الأراضي، في خراسان، وما وراء القوقاز، إلى أيدي طبقة صغيرة من العرب المقربين إلى أصحاب السلطة، أو من أعضاء الأسرة المالكة نفسها. وفي المصادر التاريخية العربية الكبرى، كمؤلفات الطبري، والبلاذري، واليعقوبي، ما يفيد أن الملكيات العقارية التي دخلت، في حوزة العائلات الأموية، وأنصارها أصبحت من السعة، ووفرة المحصول بحيث تركزت الثروات الكبرى، في أيدي طبقة عربية جديدة ومحدودة.

---

[1] تاريخ الخلفاء – السيوطي – ص١٤٠

الجزية والخراج:

استعملت الكلمتان في القرن الأول الهجري، من غير تفرقة بينهما للدلالة على الضريبة العقارية حيناً، وعلى الضريبة الشخصية حيناً أخر. ويقول نولدكه[1] (إنهم كانوا يطلقون كلمة خراج في ذلك الزمان على الجزء من الدخل الذي يلزم العبد بدفعه إلى سيده وفقاً لنظام المعاملات).

أصبحت كلمة خراج تطلق على الضريبة العقارية، وكلمة الجزية تطلق على الضريبة الشخصية.

كانت سنة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين تعفي من يعتنق الإسلام، من أهل (الذمة والشرك)، من الجزية والخراج، إلا إذا كانت الأرض خراجية من يوم الفتح الإسلامي، أما بنو أمية - إلا عمر بن عبد العزيز - فإنهم حملوا أهل الطبقة المذكورة على تأدية الجزية والخراج كأنهم لم يدخلوا في الإسلام، ولم تجر عليهم أحكامه().[2]

وعد أمير خراسان في عهد هشام بن عبد الملك، بإعفاء من يسلم من الجزية، وكثر الداخلون في الإسلام. شكا الدهاقون (النبلاء المحليون) الفرس قلة واردات الجباية، وكتبوا إليه: ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً أي مسلمين؟ فكتب إليهم: (خذوا الجزية ممن كنتم تأخذونها، فأعادوا الجزية على من أسلم سنة ١١٠ هجرية. وعندما أخذت الجزية ممن أسلم من الضعفاء كفرت السند وبخارى)[3].

كتب الخليفة سليمان بن عبد الملك إلى صاحب الخراج بمصر أسامة بن زيد التنوخي يقول له: (احلب الدر حتى ينقطع، واحلب الدم حتى ينصرم)[4].

---

[1] نقلاً عن كتاب (إيران في عهد الساسانيين- ترجمة يحيى خشاب- ص١١١)

[2] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام -بندلي خوري- ص٦٢

[3] الطبري -ج٨- ص ٥٥، ٥٦

[4] تاريخ مصر الاجتماعي- الاقتصادي- أحمد صادق سعد ص ١٨٠

الإقطاع:

بدأت علاقات الإنتاج الإقطاعية، في دولة الإسلام زمن معاوية الأول بخاصة، وفي بلاد الشام أولاً، ثم في العراق، بداية حيوية جددت شباب الإقطاعية الرومانية والساسانية التي كانت قبل الإسلام تعاني مرحلة انحدار وتناقض حاد مع قوى الإنتاج البشرية (العبيد والأحرار معاً).

لم تكتف الإقطاعية العربية، أو المحلية بما يقطعها الخلفاء من الأرض، بل لجأت إلى وسائل عديدة للسيطرة عليها، وذلك على حساب الفلاح الصغير والمتوسط، ودخلت (الفئة الحاكمة الإسلامية، في عملية الإنتاج الزراعي، بصفتها المالك الأكبر للأرض، والمستثمر الإقطاعي الأكبر)[1].

سقطت الدولة الأموية، في المشرق، بعد تسعين سنة، من تأسيسها وقد سئل بعض شيوخ بني أمية عقب زوال الملك عنهم، ما كان سبب زوال ملككم؟ فقال : جار عمالنا على رعيتنا، فتمنوا الراحة منا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا[2].

الدولة العباسية:

قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٤٥م، واتبعت الأسرة الجديدة (العباسية)، في سياستها الداخلية سياسة الأسرة السابقة(بنو أمية) أي سياسة السوط والعصا، لا سيما تجاه الطبقات السفلى، أي طبقات المزارعين، والفعلة، والحرفيين الصغار، وهم يشكلون الأكثرية الكبرى في البلاد كما هو معلوم[3].

قال أحدهم للخليفة المنصور: لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو! قال المنصور: لأن بني أمية لم تبل رممهم، ولأن آل أبي طالب لم تغمد

---

[1] النزعات المادية في الفلسفة العربية- الإسلامية-ج٢- د. حسين مروة ص ١٣

[2] خطط الشام -محمد كرد علي - ص ٣٦

[3] أخبار القرامطة - ثابت بن سنان- ص ٩٩

سيوفهم ونحن بين الناس قوم قد رأونا أمس سوقة، واليوم خلفاء فليست تمتهن هيبتنا في صدورهم إلا بنسيان العفو واستعمال العقوبة)[1].

وخطب في مكة، فقال: (أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وارادته، وأعطيه بإذنه)[2].

جمع الخلفاء والوزراء أموالاً طائلة، فعلى سبيل المثال، بلغت أموال المنصور عند وفاته أربعة عشر مليون دينار وستمائة مليون درهم فضي، وبلغ الدخل السنوي لهارون الرشيد سبعون مليون وألف وخمسمائة دينار (كان وزن الدينار يومذاك يساوي ٤,٢٥ غراماً ذهبياً). كتب جورج جرداق[3]: (وأما دخل الدولة العباسية فإن الروايات مختلفة في أمره. ولكنها كلها متفقة على بلوغ هذا الدخل أرقاماً خيالية، فأقرب الروايات إلى الصحة كون ما يدخل خزينة الخليفة في زمن الرشيد سبعة آلاف قنطار من ذهب في كل سنة) وكان له زهاء ألفي جارية من المغنيات في الخدمة، وفي الشراب، وفي أحسن زي من كل نوع من الثياب والجواهر[4] وكانت هناك فئات لا تقل غنى عن ذلك. أما الموالي فكانوا هم الأكثر سحقاً، على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي.

أخذ الصراع القديم في ظل الدولة الجديدة أشكالاً جديدة، وشمل قوى أوسع، وأصبح أكثر حدة. وقد تجلى هذا الصراع فيما بين: الإقطاعيين العرب، والإقطاعيين الفرس الذين كانت لهم اليد الطولى في انتصار العباسيين. وبين الإقطاعيين المحليين، والإقطاعية المركزية المتمثلة في الدولة العباسية الفلاحين والإقطاعيين المحليين، والعبيد والفلاحين والحرفين والصناع في جهة ومالكي الأرض والعبيد من جهة أخرى. ورداً على نزعة التعصب العربية ظهرت الشعوبية.

---

[1] الإسلام والثورة - د. محمد عمارة - ص ١٩٨

[2] العقد الفريد ج١ – ص١٧٩.

[3] الإمام علي صوت العدالة الإنسانية - جورج جرداق- ص ١٧٥

[4] الأغاني-ج٩- أبو الفرج الأصفهاني- ص ٨٨

أدركت الجماهير العريضة أن العباسيين قلبوا لهم ظهر المجن بمجرد استلامهم للسلطة، وتنكروا للمبادئ التي كانوا يبشرون بها، واستعملوا كل أساليب البطش، والقمع ضد معارضيهم وخصومهم، وأصبح الناس يترحمون على ظلم بني أمية. قال أحد الشعراء يومذاك:

يا ليت ظلم بني مروان عاد لنا

يا ليت عدل بني العباس في النار

تميز وضع المجتمع العباسي، في القرن الثالث للهجرة، بالأمور الآتية:

على الصعيد الاقتصادي:

انتقال المجتمع العباسي من الزراعة الضيقة إلى الزراعة الواسعة، والتجارة الرابحة، وأدى ذلك إلى قيام طبقة من أصحاب الثروات العريضة، والأراضي الواسعة بجانب جماهير واسعة من الفقراء، والمعدمين.

١. بتعمق التقسيم الاجتماعي للعمل، وبانفصال الحرفة الكلي عن الزراعة، وبتوسيع علاقات الإنتاج السلعي والاقتصاد النقدي على حساب علاقات الاقتصاد الطبيعي، وبتحول المدن إلى مراكز للإنتاج السلعي الكبير نسبياً (الأقمشة، الجلود، الخزف، الورق، التعدين ... إلخ)[1].

كان الفلاحون يعانون من استغلال الإقطاع المركزي والمحلي، وتمثلت تلك المعاناة بالضرائب الباهظة التي كانوا ينؤ ون تحت وطأتها، ومنها :

- ريع العمل، أو السخرة.
- الريع العيني، أو الفريضة العينية.
- الريع النقدي، أو الفريضة النقدية.
- الهدايا التي يجب عليهم تقديمها في مناسبات معينة من السنة.

- أما العبيد فإن عشرات الألوف منهم كانوا يعملون في ظروف تنعدم فيها أبسط الأمور الإنسانية. كان مصدر العبيد: السبي، والنخاسة، وعبودية الدين. ثم صار العبيد (السود) يجلبون من سواحل إفريقية الشرقية، أما العبيد (البيض) فكان يتم شراؤهم من بلاد فارس والروم.

---

[1] مجلة دراسات عربية - نايف بلوز- ١٩٧٢ ص- ٩

٢. بدأ التفكك في الإقطاعية المركزية يظهر واضحاً، نتيجة تطور القوى المنتجة من جهة، ولأنها أصبحت عبئاً ثقيلاً ليس على القوى المنتجة فحسب، وإنما عبئاً على الإقطاعيات المحلية من جهة ثانية، وأصبح الخليفة العباسي يكتفي بجباية الضرائب، وصار عمال الدولة يحتفظون لأنفسهم بقسم كبير من الضرائب لأن السلطة المركزية عاجزة عن معاقبتهم لو أرادت ذلك. وأثقلت ضرائب السلطة المركزية كاهل الحرفيين والصناع والتجار. وكان من علائم التفكك البارزة نشوء الإقطاعيات العسكرية للقادة الأتراك، والفرس، والعرب.

على الصعيدين الاجتماعي والسياسي:

١. لم تفقد السلطة المركزية للخلافة الأراضي الواسعة وحسب، بل فقدت هيبتها. فبعد موت المعتصم أخر الخلفاء الأقوياء، أصبح القواد الأتراك يتحكمون بالمفاصل الأساسية للدولة، ولم يبق للخليفة إلا الدعاء على المنابر.

٢. تفاقم الصراع داخل العائلة العباسية نفسها، حول السلطة. ففي مدة تسع سنوات قتل أربعة من الخلفاء، وصور العديد من الشعراء، ومنهم دعبل الخزاعي تلك المرحلة قائلاً:

خليفة مات لم يحزن عليه أحد
وآخر قام، لم يفرح به أحد
فمرّ ذاك، ومرّ الشؤم يتبعه
وقام ذا، فحلّ النحس والنكد

٣. صراعات دامية بين الجماهير الواسعة، وبين السلطة المركزية، والإقطاعيات المحلية، واتخذت تلك الصراعات أشكالاً متعددة، فقد شهد القرن الثالث للهجرة تمردات وانتفاضات كثيرة، من أهمها:

- حركة العيارين والشطار، وضمت الحرفيين والعامة.
- ثورة بابك الخرمي في أذربيجان، من ٢٠١هـ - ٢٢٢هـ/٨١٦م -٨٣٧م
- ثورة الزنج في البصرة، عام ٢٥٥ هـ.

- الثورة القرمطية في شبه الجزيرة العربية.
- قيام الدولة الفاطمية في المغرب العربي.
- قيام الدولة الطولونية في مصر، وغيرها من الدول في مناطق أخرى.

٤. شهد هذا القرن حركة فكرية واسعة ومتطورة، لم تمر بها العصور السابقة، كما تطورت العلوم التطبيقية.

اتصف المجتمع العباسي في القرن الرابع للهجرة، بصفات عبر عنها عبد العزيز الدوري[1]، بالقول: (إنه مجتمع معقد تتعدد عناصره السكانية لا من حيث الجنس فقط بل في مواقعها في الإنتاج الاقتصادي، ذلك أن هذا المجتمع شهد نوعاً من تقسيم العمل: عرب المدن اشتغلوا بالتجارة، والمهن الحرة، فالعربي يأنف من الزراعة، والنبط اشتغلوا بالزراعة، واشتغل البدو بالرعي وتربية المواشي، وكان الترك والديلم جنوداً، ومن المسيحيين من اشتغل بالترجمة والطب، واشتغل اليهود في التجارة والصيرفة. وكان اليهود أغنياء (ولاسيما الحاخاميين)

وكتب المقدسي[2] قبل ذلك : إن العراق بيت الفتنة والغلاء وهو كل يوم إلى وراء، ومن الجور والضرائب إلى وراء).

---

(1) تاريخ العراق- عبد العزيز الدوري- ص ٢١

(2) أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم – المقدسي – ص١١٣

الفصل الثاني

البناء الفكري

- التوارث
- قضية الإنسان
- الظاهر و الباطن
- محاربة الباطنية
- الإرهاب الفكري
- الحشاشون

التوارث:

إن تاريخ البشرية سلسلة من أجيال الناس، والثقافات، والحضارات، والعصور، التي يحل بعضها محل بعض. فالماضي، في حياة الشعوب يمهد للحاضر. وفي الحاضر تنشأ أسس المستقبل. وإذا كانت كل أيديولوجية، من حيث مضمونها انعكاساً للتناقضات والعلاقات الاجتماعية_ الاقتصادية لعصرها، فهي من حيث الشكل استمرار لتطوير التراث السابق، ومعالجته الانتقادية، أو استخدامه على نحو ما.

ربطت العرب قبل الإسلام بشعوب العالم القديم روابط كثيرة، اقتصادية -اجتماعية، وسياسية، ازدادت هذه الروابط كثيراً بعد الفتح الإسلامي، وتكون عالم جديد هو العالم العربي الإسلامي. اتسعت رقعته الجغرافية كثيراً، وضم شعوباً وأعراقاً عديدة، وساعد وجود دولة مركزية قوية (الأموية والعباسية، في المشرق، والأموية، في المغرب) ليس فقط على تبادل المنتجات والبضائع بل قدم العرب مخزونهم الثقافي لهاتيك الشعوب، ومكنت العرب أيضاً من الإطلاع المباشر على ثقافتها، فجرى تمازج بين هاتيك الثقافات، وتكونت ثقافة جديدة هي الثقافة العربية -الإسلامية. تمثلت عناصرها المكونة، بالأمور التالية:

- تركت الديانات التي كانت سائدة_ عدا عن اليهودية والمسيحية، تأثيرها على تفكير المسلمين، ومن هذه الديانات: المجوسية والمانوية، والسمنية...إلخ كما ترك الدين الإسلامي تأثيره على الآخرين

- الأثر الذي خلفته الثقافات : الفارسية، والهندية، واليونانية،والرومانية، والعربية أيضاً في رسم اللوحة الجديدة.

ولما كان المجتمع في حركة دائمة، فمن الطبيعي أن تشمل هذه الحركة البنيان الفكري، وبالتالي تجعل منه ظاهرة موحدة، وفي نفس الوقت تحمل في حناياها عناصر متضادة. وقد شكلت هذه الظاهرة عنصراً هاماً، في الثقافة العربية الإسلامية.

- ظاهرات القلق الاجتماعي لدى جماهير العامة من سكان المدن، كالحرفيين، والباعة المتجولين، وأصحاب الحوانيت الصغيرة، وبقية المعدمين. وقد دفع الوضع المعاشي المتدهور لهذه الجماهير أن تنشئ تنظيمات لكل صنف منها ذات طابع تعاوني داخل كل صنف من جهة، وطابع عنفي ضد السلطة، وأغنياء التجار، وكبار الملاكين العقاريين من جهة ثانية. وقد تجلى القلق الاجتماعي على نحو واضح في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

قضية الإنسان:

إن ديدن المستغلين والظالمين هو الإبقاء على سيطرتهم وسيادتهم بكل السبل والوسائل، فعدا عن امتلاكهم المال والسلاح والسلطة، فقد أوجدوا منظرين يبررون لهم كل تصرفاتهم، يهدف سحق الإنسان، أو تهميشه وجعله خانعاً لا حول ولا طول له! يحلم بالسعادة ولكن ليس على هذه الأرض!

كان معاوية بن أبي سفيان، ثم مروان بن الحكم وأولاده من بعده على درجة كبيرة من الذكاء بحيث أدركوا أن الأمر لن يستتب لهم، خاصة بتنامي الوعي الاجتماعي، ورفض الظلم الواقع على الناس من الخلفاء وعمالهم، ما لم يشغلوا الرأي العام بأمور ذات نفع ظاهري عام، فكان تشجيعهم للفتوحات...، ثم اختلاقهم قضية القراءات القرآنية، واختلاف (علماء) الأمصار حولها، ثم أطنان الحديث المنسوبة للنبي ﷺ في فضائل معاوية، ثم بني مروان، ليجري كل ذلك في خط متوازٍ ومتزامن مع إعمال السيف في رقاب من يجرؤ على رفع صوته أمام (خليفة الله في خلقه!).

فها هو الحجاج بن يوسف يقول[1]: (والله لطاعتي أوجب من طاعة الله، لأن الله يقول: (واتقوا الله ما استطعتم) فجعل فيها مثنوية (الاستثناء: ما استطعتم)، وقال: واسمعوا وأطيعوا، ولم يجعل فيها مثنوية. ولو قلت لرجل: ادخل من هذا الباب، فلم يدخل، لحلَّ لي دمه. وعندما قتل عبد الله ابن الزبير، أعلنها عبد الملك بن مروان صريحة حين قال: (والله لئن أمرني أحدكم بعد يومي هذا بتقوى

---

[1] الحيوان للجاحظ - المجلد ٣ - ص ١٥ -١٦

الله لقطعت رأسه)[1]. أما ابنه الوليد فقد هدد (من لا يخاطبه بلقبه الرسمي (الخليفة) بإعدامه)[2]

أما العباسيون فقد وسعوا قاعدة تأميم (الفقه)، بهدف إشغال الناس وإلهائهم، فظهرت:

- مدرسة الرأي بالعراق على يد أبي حنيفة وأبي يوسف.
- مدرسة ابن حنبل في الشام
- مدرسة الشافعي في مصر.

وأقرت فتوى بعض منظري السلطة العباسية بإغلاق باب الاجتهاد، وفتح بذلك باب السلفية الفكرية المستنيمة إلى المخلفات الرسمية للقرنين الأول والثاني للهجرة، السادس والسابع الميلاديين.

وقام البغدادي[3]، في القرن الرابع للهجرة برسم خارطة للمسلمين قسمهم فيها إلى ثلاث وسبعين فرقة، واحدة منها هي (الفرقة الناجية) أما الفرق الأخرى فيتفاوت وضعها قرباً أو بعداً عن الإسلام!

موجز القول : استخدمت الإيديولوجيا القائمة على أساس الدين لإضفاء طابع الإرادة الألهية المطلقة، على نظام الحكم والنظام الاجتماعي الذي تمثله الطبقة المسيطرة اقتصادياً وسياسياً. كما استخدمت لإضفاء تلك الإرادة على عبودية الإنسان وشقائه.

ما سبق كان أحد وجهي المسألة، أما الوجه الآخر فقد ظهر بأشكال متعددة تتراوح بين الأنين والشكوى، إلى رفع الصوت مجلجلاً يدحض أعداء الإنسان ويبرهن على عظمته.

خاطب[4] ((أحد جهلة الناس وعوامهم، الإمام مالك يوماً (عاش الإمام مالك

---

[1] البعث عن العقل - حوار مع فكر الحاكمية والعقل - كتاب الهلال - العدد ٥٦٠ - آب ١٩٩٧.

[2] التنبيه والإشراف - المسعودي - ص ٢٧٤.

[3] الفرق بين الفرق - عبد القاهر البغدادي

[4] مالك بن أنس إمام دار الهجرة لأبي زهرة، ومالك إمام دار الهجرة للجندي

بين سنتي ٩٥-١٧٩ هجرية)) عن بذخ الولاة واستهتارهم بحقوق الناس، وكيف أنه (أي المتكلم) لا يجد شسع نعل يضعه في قدمه. فبان الغضب على وجه (إمام دار الهجرة) وقال : كيف تجرؤ أن تطأ أرض المدينة بنعال، وفي هذه الأرض جثة رسول الله ؟)).

قال الأصمعي : أصابت الأعراب مجاعة، فمررت برجل قاعد مع زوجته بقارعة الطريق، وهو يقول:

يا رب إني قاعد كما ترى

وزوجتي قاعدة كما ترى

والبطن مني جائع كما ترى

فما ترى يا ربنا فيما ترى؟

تحفل كتب التراث بالكثير من مثل هذه الشكاوى، التي تحولت لاحقاً إلى إيديولوجيا تعبر عن آمال وآلام الطبقات والفئات الاجتماعية المستَغلّة، والمحرومة الإرادة،والحرية، والكرامة البشرية، وساهم في تكوينها والتعبير عنها أهل الفكر ذوي النزعات المتحررة الذين كانوا على نحو أو آخر ينتمون إلى هذه الطبقات، ويؤكد ذلك أن معظم المفكرين الإسلاميين الذين قادوا الحركات الفكرية المناهضة لإيديولوجيا الحكم كانوا من الموالي، أو من منشأ اجتماعي، وإقليمي يعاني الاضطهاد الطبقي بصورة تلتبس فيها العصبية بالطبقية.

ومن الخصائص التاريخية للمجتمع العربي_ الإسلامي، في العصر الوسيط، أنها أبرزت التناقضات، ذات الجوهر الطبقي، بأشكال دينية حيناً كمذاهب متصارعة، وبأشكال إقليمية حيناً كصراع بين السلطة المركزية لدولة الخلافة، وبين قوى اجتماعية، في الأقاليم تبدو كأنها خارجة على تلك السلطة.

كانت قضية (الإنسان) هي المظهر الأول والأساسي لهذه الإيديولوجيا، وقد انتقلت هذه القضية، من مجال الواقع الاجتماعي، إلى المجال الفكري، وظهرت، في صور عديدة، منها:

١. (الإنسان) الذي رفع من صفوف الناس العاديين إلى مراتب (الإمامة) عند الشيعة، أو (النبوة)، أو الألوهية عند بعض الفرق الإسلامية.

٢. (الإنسان) ذو الإرادة المستقلة، والاختيار الحر، عند القدرية والمعتزلة.

٣. (الإنسان) القادر على معرفة أسرار الكون، وأشياء العالم كله بطريق النظر العقلي، والتجربة العملية الحسية، عند المتكلمين، وعلماء الطبيعة، والفلاسفة.

٤. (الإنسان) المؤهل لمرتبة (الولاية)، لتظهر على يديه خوارق الأحداث، والذي يصل إلى الله مباشرة بالمعرفة (الحدسية)، أو (الكشف والمشاهدة)، أو (بالشهود الحضوري)، عند المتصوفة عموماً، أو الذي يصبح اصل العالم، ويصبح اسمه اسماً للعالم كله (الإنسان الأكبر)، عند الشيخ محي الدين بن عربي.

٥. الإنسان الذي خلقه الله ليكون خليفة له (إني جاعل في الأرض خليفة ... سورة البقرة - الآية ٣٠)

إن هذه العملية (قضية الإنسان) المتنوعة، وذات التاريخ الطويل لم تكن عملية فكرية مجردة، أي منعزلة عن العمليات الحية التي كانت تجري، في ذلك المجتمع نفسه خلال تلك المراحل التاريخية نفسها. وإن التحليل العلمي للمسألة يكشف لنا أنها كانت علاقة بين مجالين لقضية واحدة، بمعنى أنه كان للإنسان، في المجتمع العربي - الإسلامي قضية واقعية فعلية متحركة، في مجال الواقع الاجتماعي، ولا بد لهذه القضية ذاتها أن تنعكس على نحو أو آخر، في مجال الواقع الفكري.

الظاهر والباطن:

كان الدين الإسلامي هو القوة الروحية السائدة، في المجتمع العربي الإسلامي. ومن أجل المحافظة على مكاسبها وامتيازاتها استخدمت القوى والفئات المسيطرة سياسياً واقتصادياً، نصوصاً قرآنية، أو أحاديث منسوبة للنبيﷺ فسرتها على نحو يخدمها، ويبرر لها تصرفاتها كيف كانت. وفيما يأتي

بعض من تلك الأحاديث: عن أبي سعيد الخدري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «منَّا القائم ومنا المنصور، ومنا السفاح، ومنا المهدي (لاحظ جميعهم خلفاء عباسيون). فأمَّا القائم فتأتيه الخلافة ولم يهرق فيها محجمة دم، وأما المنصور، فلا ترد له راية، وأما السفاح فهو يسفح المال والدم، وإما المهدي فيملؤها عدلاً كما ملئت ظلماً»[1]

قال النبي ﷺ للعباس بن عبد المطلب: (إن الخلافة في عقبك إلى يوم القيامة)[2]

عملت المعارضة على تفنيد حجج خصومها مستندة إلى الدين نفسه, رافضة التفسيرات التي وضعها الخصوم لأن العقل السليم يرفضها، أو لأن لكل كلمة في القرآن الكريم معنيان: ظاهري يفهمه الجميع، وباطني لا يدرك إلا بالتأويل، ولا يفهمه إلا كل ذي بصيرة! واستدلوا على ذلك بآيات قرآنية تؤكد وجود ظاهر وباطن له.

روي عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) قوله: (ما من آية في القرآن إلا ولها أربعة معان: ظاهر، وباطن، وحد ومطلع) وقد نسب أبو حامد الغزالي هذا الكلام إلى النبي ﷺ، ويرويه على النحو الآتي: (القرآن ظاهر، وباطن وحدّ ومطلع)، ثم يتابع الغزالي: (ربما ينقل هذا عن النبي ﷺ). وهناك أحاديث تقول بأن للقرآن ظهراً وبطناً، وأن لبطنه سبعة أبطن أو سبعين بطناً. وورد في حديث آخر: (نزل القرآن على سبعة أحرف لكل منها ظهر وبطن، ولكل بطن منها ظهر وبطن، إلى سبعة أبطن)[3]

يؤكد ما سبق أن نظرية الظاهر والباطن بدأت منذ فجر الإسلام، ومما لا شك فيه أنها تطورت لاحقاً وتبلورت، وصارت كلمة (باطنية) تطلق على الحركة التي تأخذ بها. ومن أشهر الحركات الباطنية : الصوفية، والشيعة بأقسامها كافة. تكمن خطورة نظرية الظاهر والباطن، في أمور عديدة، منها:

---

[1] تاريخ الخلفاء - السيوطي - ص١٠١.

[2] ثمرات الأوراق - ابن الحموي - مصر.

[3] الجامع الصغير – ج١ - ص١٠٧.

إنها تؤدي إلى خرق وحدة الحقيقة الدينية في الإيديولوجيا الرسمية التي هي الشريعة، ووفقاً لتلك النظرية، فإن الشريعة هي الحقيقة الظاهرة، أما الحقيقة الباطنية فهي الجوهرية، وهي التي يرجع إليها (عند الصوفية) دون الظاهرة. ويترتب على ذلك رفض الشريعة. أما البعد الحقيقي لهذه النتيجة فهو: رفض النظام الاجتماعي ذاته.

- الخروج من العبودية: قال الإمام جعفر الصادق: (من عرف الباطن فقد سقط عنه عمل الظاهر، وما دام لا يعرف هذه الدرجات، ولا يبلغها بمعرفته، فإذا بلغها وعرفها منزلة منزلة، ودرجة درجة، فهو حينئذ حرٌ قد سقطت عنه العبودية، وخرج من حدّ المملوكية إلى حد الحرية باشتهائه ومعرفته)[1].

ينقل الغزالي عن الصحابي أبي الدرداء القول الآتي: (لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة، فما أعجب قول عبد الله ابن مسعود: ما من آية إلا ولها قوم سيعملون بها)[2].

يؤكد الباحث المعاصر د. محمد شحرور أن القرآن يؤوَّل ولا يفسر، وإن كل تفاسير القرآن يحمل طابع الفهم المرحلي النسبي)[3].

محاربة الباطنية:

أوجد منظرو السلطات أساساً فكرياً يحللون لها بموجبه البطش بالباطنيين، فقد وصف البغدادي (ت ق ٤ هـ) أتباع الفرق الباطنية بأنهم[4]:

١ - العامة الذين قُتِلَتْ بصائرُهم بأصول العلم والنظر كالقبط، والأكراد، وأولاد المجوس.

٢ - الشعوبية الذين يرون تفضيل العجم على العرب!

٣ - أغنام بني ربيعة من أجل غيظهم من مضر. (ربيعة ومضر قبيلتان عربيتان) لخروج النبي محمد ﷺ منهم!

---

[1] الهفت الشريف - رواه المفضل بن عمر الجعفي - تحقيق وتقديم د. مصطفى غالب -ص ٤١

[2] إحياء علوم الدين - المجلد الخامس - أبو حامد الغزالي ص ٥٠

[3] الكتاب والقرآن قراءة معاصرة - د. محمد شحرور - ص ٣٧

[4] الفرق بين الفرق - عبد القاهر البغدادي ص ٢٨٥ - ٢٨٦

ووصفهم ابن الجوزي بأنهم: (قوم تبعوا طريق الملاحدة، وجحدوا الشرائع)[1].

لم تتوقف أمثال تلك الوصفات على مدى التاريخ، فقبل سنوات أصدر ابن بازر رئيس لجنة البحوث والإفتاء، في السعودية، فتوى تبيح أعمال الذبح والقتل في الفرق الباطنية الموجودة في العالمين العربي والإسلامي!

وقد تظل تلك الصفات بقسوتها وبشاعتها مقبولة إذا ما قورنت بأعمال البطش التي تعرض لها الباطنيون.فقد قتل أحد أمراء خراسان في مدة قليلة أكثر من مائة ألف إنسان وبنى من رؤوسهم مناراً (أذن عليه المؤذنون)[2] وقتل سلطان غزنة في مدينة ملطان على أرض الهند (الألوف وقطع أيدي ألف منهم)[3] لم تقتصر جهود محمود الغزنوي على فتح البلاد في فارس وخراسان وغيرها ،بل اهتم بالقضاء على (أهل البدع والأهواء) فصلب عدداً كبيراً من الباطنية، وأحرق كتب الفلسفة. كتب الذهبي : وامتثل يمين الدولة محمود بن سبكتكين أمر القادر بالله (الخليفة العباسي) وبث كلمته في عماله بخراسان وغيرها في قتل المعتزلة والرافضة والإسماعيلية والقرامطة والجهمية والمشبهة وصلبهم ونفاهم وأمر بلعنهم على المنابر، وشردهم من ديارهم)[4].

الغزو الصليبي!

تميز القرن الخامس الهجري بازدياد حدة التناقضات في الكثير من بلدان العالم العربي - الإسلامي، وأصبحت مقدرات الدولة العباسية بيد القادة الأتراك، ونشأ العديد من الدويلات المستقلة، أو التابعة اسما للخلافة العباسية، كما انتشرت موجة من الافكار الظلامية خلقت أرضية صلبة استند إليها المتسلطون للبطش بخصومهم، ونشر الإرهاب بأشكاله كافة.

---

[1] أخبار القرامطة - ابن الجوزي - تحقيق د. سهيل زكار ص ٢٥٥ - ٢٥٦

[2] مذاهب الإسلاميين - د. عبد الرحمن بدوي، ج٢، ص ١٦٢

[3] المصدر السابق ص ١٦٢

[4] تاريخ الدولة الفاطمية - د. حسن ابراهيم حسن ص ٢٦١

قال أبو العلاء المعري:

ســـاس الأنـــام شـــياطينٌ مســـلطةٌ

في كـــل قطـــر مـــن الـــوالين شـــيطانُ

وهكذا فقد أصبحت المنطقة العربية ـ الإسلامية فريسة سهلة للمحتل أمام الطامعين بها، فتوسعت الدولة السلجوقية التركية، وضعفت أكثر فأكثر الخلافة العباسية في بغداد، ولما مات ملكشاه السلجوقي وقع الخلاف بين ولديه محمد وبركيارق، ودام الحرب بينهما لمدة اثني عشر عاماً.

برز إلى جانب تلك التناقضات والصراعات الدموية تناقض جديد تمثل بالغزو الصليبي حيث وصلت جموع الفرنجة إلى انطاكية. فملكوها في جمادي الأولى سنة ٤٩١هـ /١٠٩٨م، ثم أخذوا القدس في شعبان سنة ٤٩٢هـ /١٠٩٩م.

وبدلاً من أن توحد تلك الدويلات نضالها لمقاومة الغزاة الصليبيين بقيت سادرة في غيها، وغارقة في صراعاتها الدموية المريرة، ولا ترى لها عدواً إلا الجماهير الشعبية، وبخاصة المتنورين منها. مما مكن الفرنجة من احتلال فلسطين وغيرها. ووصل الأمر بالسلاجقة أنهم كانوا يستعينون في صراعهم بالفرنجة.

يتناول هذا الفصل الموضوعين الآتين:

١ـ الإرهاب الفكري.

٢ـ التصدي للغزو الصليبي.

الإرهاب الفكري!

لم تتوقف الموجة الكبرى من العداء للفكر الفلسفي والمنطق منذ القضاء على المعتزلة، بل استعرت نار الإرهاب الفكري واشتد أوراها، وتجلت في الحملة الإرهابية التي أثارها علماء الكلام الأشاعرة، وكان أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ) حامل رايتها، وظل فكره يرهب الفلسفة والفلاسفة مدى أجيال لاحقة، وقد شمل إرهابه كل قطر يتحرك فيه نبض الفكر العربي ـ الإسلامي، في المشرق والمغرب على السواء. وتابع ابن تيمية، (بعد الغزالي بنحو قرنين من الزمن)، حربه على الفكر الفلسفي، ورمى ابن سينا وغيره بالالحاد.

وبتوجيه من المستظهر الخليفة العباسي، والسلاجقة الأتراك ألف الغزالي سنة ٤٨٧هـ /١٠٩٤م كتابه الشهير (فضائح الباطنية).[1] ومما جاء في مقدمته:

«خرجت الأوامر المستظهرية بالإشارة إلى الخادم (الغزالي)، في تصنيف كتاب في الرد على الباطنية مشتمل على الكشف عن بدعهم وضلالاتهم وفنون مكرهم واحتيالهم، ووجه استدراجهم عوام الخلق وجهّاً لهم وإيضاح غوائلهم في تلبيسهم وخداعهم، وإنسلالهم عن ربقة الإسلام، وانسلاخهم وإنخلاعهم وإبراز فضائحهم وقبائحهم - بما يفضي إلى هتك أستارهم وكشف أغوارهم».

أن هتك الأستار وكشف الأغوار قد يكون مقبولاً، لو اقتصرت المسألة على مقارعة الحجة بالحجة، والفكر بالفكر... إلا أن الغزالي لم يمهلنا طويلاً، بل حدد العقوبات التي يجب أن تفرض بحق هؤلاء الباطنيين ذوي التفكير الحر، فهو يقول: «وأما توبة الباطنية وكل زنديق مستتر بالكفر يرى التقية ديناً ويعتقد النفاق وإظهار خلاف المعتقد عند استشعار الخوف حقاً، ففي هذا خلاف بين العلماء: ذهب ذاهبون إلى قبولها، وذهب ذاهبون إلى أنه لا تقبل توبته!» وحول الموقف من التائب، يقول (الغزالي): «للتائب من هذه الضلالة أحوال: الحالة الأولى أن يسارع إلى إظهار التوبة واحد منهم من غير قتل ولا إرهاق واضطرار.. واستشعار هذا ينبغي أن يقطع بقبول توبته.

الحالة الثانية: الذي (يُسْلِمُ) تحت ظلال السيوف، ولكنه من جملة عوامهم وجهالهم لا من جملة دعاتهم وضلالهم فهذا أيضاً تقبل توبته.

الحالة الثالثة: ظُفِرَ بأحد الدعاة... والأولى أن إلا يوجب على الأمام قتله لا محالة ولا أن يحرم قتله، بل يفوض إلى اجتهاده فإن غلب على ظنه أنه سالك منهج التقية فيما أداه قتله! وإن غلب على ظنه أنه تنبه للحق وظهر له فساد الأقاويل المزخرفة التي كان يدعو إليها، قبل توبته وأغضى عنه في الحال وأن بقيت به ريبة وكِّلَ به من يراقب أحواله ويتفقده في بواطن أمره ويحكم بموجب ما يتضح له منه!».

---

[1] فضائح الباطنية - أبو حامد الغزالي - حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي - القاهرة ١٩٦٤ - ص٣.

أسئلة كثيرة تطرحها مقولات الغزالي: كيف يمكن معرفة ما يخفيه المرء في نفسه؟ وهل يلجأ إلى التقية أم لا؟ فالمحاسبة تتم حسب نوايا الضحية التي لا يعرفها إلا الله، فبأي حق تطلب استتابته أو رجوعه عن معتقده؟

أن التقية التي تعتبر جريمة في نظر الغزالي، مسألة تعتقدها الغالبية العظمى من الفرق الإسلامية، كما أن لها مستندها عندهم قد يكون أكثر قوة من المستندات التي اعتمدها الغزالي وغيره، فعلى سبيل المثال أذكر:

- روي عن محمد بن علي الباقر قال: خطب الأمام علي (عليه السلام) على منبر الكوفة فقال: سيعرض عليكم سبي وستذبحون عليه فإن عرض عليكم سبي فسبوني[1] أليس السب في مثل هذه الحالة تقية؟!.

- قال الأمام جعفر الصادق: التقيه ديني ودين آبائي وأجدادي، ومن لا تقية له لا إيمان له[2]

ملاحظة: حين اقبل وباء الصليبين على بلاد الإسلام والعروبة لم يتحرك الغزالي، ولم يثر وعاش بعد احتلال الصليبين للقدس سنة ٤٩٥هـ أكثر عشرة أعوام، ومع ذلك لم نره يحض على قتالهم، ولم يحرض عليهم.

تصفيات بالجملة!

كتب ابن الأثير في حوادث سنة ٤٩٤هـ[3]: "أمر السلطان بركيارق بقتل الباطنية، وهم الإسماعيلية وهم الذين كانوا قديماً يسمون قرامطة، فتجرد للانتقام منهم الفقيه الشافعي أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندي، وجمع الجم الغفير بالأسلحة، وأمر بحفر أخاديد وأوقد النيران فيها، وجعل العامة يأتون بالباطنية أفواجاً ومنفردين، فيلقون في النار، وجعلوا إنساناً على أخاديد النيران، وسموه مالكا (مالك خازن جهنم يوم القيامة) فقتلوا منهم خلقاً كثيراً".

---

[1] شرح ابن أبي الحديد - نهج البلاغة - المجلد الأول - ج٤ - ٢٣٧٢.

[2] الهفت الشريف - ص٣٠.

[3] الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج٨ - ص ٤٥٠.

وقتل تاج الملوك صاحب دمشق ستة آلاف نفس من الباطنية[1].

وفي سنة ٥٢٢هـ "جمع شاه مازندران رستم بن علي بن شهريار عسكره، وسار..، وجدَّ السير إلى بلد آلموت، وهي للإسماعيلية، فأغار عليها وأحرق القرى والسواد، وقتل فأكثر، وغنم أموالهم، وسبى نساءهم، واسترق أبناءهم فباعهم في السوق، وعاد سالماً غانماً، وانخذل الإسماعيلية، ودخل عليهم الوهن ما لم يصابوا بمثله، وخرب من بلادهم ما لا يعمر في السنين الكثيرة"[2]

وفي سنة ٦٢٤هـ «سار جلال الدين في عساكره إلى بلاد الإسماعيلية من حدود آلموت إلى كردكوه بخراسان فخرب الجميع، وقتل أهلها، ونهب الأموال وسبى الحريم، واسترق الأولاد، وقتل الرجال، وعمل بها الأعمال العظيمة، وانتقم منهم، وكانوا قد عظم شرهم وازداد ضرهم، وطمعوا مذ خرج التتر إلى بلاد الإسلام إلى الآن، فكف عاديتهم وقمعهم، ولقّاهم الله ما فعلوه بالمسلمين».[3]

باسم الإسلام يبطش القتلة بالاطفال والنساء، وينسون كلام الله تعالى: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً» ـ سورة النساء ـ الآية ٩٣. أو قوله: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ». سورة الأنعام ـ الآية ١١٧.

دفاع مشروع:

عندما تسبى النساء، ويؤخذ الأولاد ليباعوا عبيداً في سوق الرقيق بعد قتل آبائهم، وتهديم بيوتهم، فإن كل عمل يحول دون وقوع مثل تلك الجرائم عملاً مشروعاً. قال تعالى: «وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً» سورة الإسراء ـ الآية ٣٣.

---

[1] الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ج٩ ـ ص ٢٤٢.

[2] المصدر السابق ـ ج ٩ ـ ص١٧.

[3] المصدر السابق ـ ج ٩ ـ ص ٤٢٤.

إن منطوق الآية صريح وواضح، فإن الحركة الإسماعيلية وبخاصة قيادتها هي ولي من قتل مظلوماً في مثل الحالات السابقة الذكر، ولها الحق كل الحق أن تثأر، وبخاصة أن المسؤول عن ارتكاب تلك الجرائم هو الحاكم وأعوانه. لذا فقد أنشأ الاسماعيليون حركة فدائية مهمتها أخذ الثأر لقتلاهم، وذلك بالتخلص من خصومهم أين وأنى كانوا. وفيما يأتي بعض الأمثلة.

آق سنقر:

كان هذا الأمير التركي حاكماً لهمدان، ويصفه ابن الأثير بأنه كان كثير الغزو للإسماعيلية والقتل فيهم والنهب لأموالهم والتخريب لبلادهم، وقد جرى قتله في كمين نصب له. وكان اغتيال آق سنقر فاتحة لموجة الاغتيالات التي نفذتها الحركة الإسماعيلية.

اغتيال نظام الملك[1]:

كان نظام الملك أعظم رجال الدولة في عهد السلاجقة، واليد الضاربة للمعسكر الظلامي. تحدث ابن الأثير عن مقتل نظام الملك في حوادث سنة ٤٨٥هـ ووضع له أسباباً تختلف بحسب الروايات التي تناولت الحدث، فواحدة منها أن نجاراً اسماعيلياً قتل مؤذناً، فأمر نظام الملك بقتل النجار، فقتل الاسماعيليون نظام الملك، وقالوا: قتل نجاراً فقتلناه به.

ويجب ألا يغيب عن البال أن نظام الملك مارس سياسة قمعية منظمة ضد القوى المستنيرة.

اغتيال فخر الملك:[2]

انه ابن نظام الملك أحد أركان السلطة السلجوقية، وقد قتله فدائي إسماعيلي سنة ٥٠٠ هـ، وحين قبض على هذا الفدائي واستجوب سمى جماعة من كبار المسؤولين قال إنهم كانوا وراء خطة الاغتيال فأخذ هؤلاء وقتلوا، فأصاب أكثر من عصفور بحجر.!

---

[1] مقدمة ابن خلدون - لبنان - ط٥ ١٩٨٤، ص٢٠١.

[2] الكامل في التاريخ - ابن الأثير - حوادث سنة ٥٠٠هـ

اغتيال آق سنقر البرسقي:

كانت مدينة الموصل في شمال العراق قد خضعت شأن غيرها من مدن العراق والجزيرة لأمراء الحرب الأتراك الذين تداولوها بالوراثة أو الغلبة. وكانت في ذلك الحين من مراكز النشاط الإسماعيلي فتصدى له أمراؤها الأتراك على طريقتهم وكان أشدهم في ذلك أمير حرب يسمى قسيم الدولة آق سنقر البرسقي. يقول ابن الأثير:[1] "إن هذا الرجل قد تولى استقصاء الباطنية في الموصل ووصله خبر أنهم يجتمعون لدى اسكاف، في أحد أحيائها، فقبض عليه واستجوبه فلم يخبره بشيء. فأمر به فقطعت يداه ورجلاه وعضوه التناسلي، ثم رجموه بالحجارة حتى مات. فترصد الباطنية أق سنقر حتى وجدوا منه غفلة، فانقض عليه بضعة عشر رجلاً منهم بالسكاكين... وقضوا عليه".

اغتيال وزير سلجوقي ظالم:

تحدث ابن كثير في حوادث سنة ٥١٦هـ في كتاب (البداية والنهاية) عن مقتل علي بن أحمد السميرمي وزير السلطان السلجوقي محمود، قائلاً:[2] «كان علي مجاهراً بالظلم والفسق وأحدث على الناس مكوساً وجددها بعد أن كانت قد أزيلت من مدة متطاولة وكان يقول: قد استحييت من كثرة ظلم من لا ناصر له وكثرة ما أحدثت من السنن السيئة. ولما عزم على الخروج إلى همذان أحضر المنجمين فضربوا له تخت رمل ساعة خروجه ليكون أسرع لعوده، فخرج في تلك الساعة وبين يديه السيوف المسلولة والمماليك الكثيرة بالعدد الباهرة فما أغنى عنه ذلك شيئاً بل جاءه باطني فضربه فقتله»

عاث الصليبيون فساداً حيث نزلوا، فقتلوا ودمروا واحرقوا، وسجل التاريخ شهادات حية على البطولات التي اجترحتها الجماهير الشعبية أثناء تصديها للغزاة، كما سجل الممارسات الوحشية التي مارسها الصليبيون. حاصر الفرنجة

---

[1] الكامل في التاريخ - ابن الأثير - حوادث سنة ٥١٦هـ.

[2] المصدر السابق حوادث سنة ٥١٦هـ.

مدينة المعرة، واحتلوها بعد قتال عنيف، وأمنوا السكان ثم غدروا بهم، وقتلوا مائة ألف نسمة، وطبخوا لحم المقاومين وأكلوه. وتعترف بذلك المصادر الأوروبية ولاسيما ونسمان، وديورانت.

بنى الصليبيون عشرات الحصون والقلاع، عدا تلك التي تمكنوا من احتلالها والسيطرة عليها.

بذل الإسماعيليون المستحيل لرد الفرنجة الغزاة وإخراجهم من قلاع منطقة حلب، فجردوا حملة على افاميا سنة ٤٩٧هـ /١١٠٣م وتمكنوا من طرد الصليبيين منها كما تمكنوا لاحقاً من تحرير الكثير من القلاع الصليبية. كتب فيليب حتي: «إن جميع هذه الحصون والقلاع كان الصليبيون قد بنوها لتسيطر على الممرات التي امتدت بين الأقاليم الإسلامية الداخلية، والمناطق (الإفرنجية) الساحلية»[1].

أمير طرابلس:[2]

بينما كان الكونت ريموند الثاني يجتاز عند عودته المدخل الجنوبي "لعاصمته" طرابلس سنة ٥٤٧هـ /١١٥٢م وثب عليه جماعة من الإسماعيلية فطعنوه فأصابوا منه مقتلاً، ولما حاول رالف ميرل، وفارس آخر كانا بصحبته أن يدافعا عنه، لقيا أيضاً مصرعهما.

معركة الغدير:

حدثت واقعة راس التينة عند نهر الغدير سنة ٥٦٤هـ /١١٦٨م بين أبي العشائر التنوخي والافرنج وهي واقعة شهيرة قتل فيها من الافرنج خلق كثير وانهزم من بقي إلى بيروت وتحصنوا فيها، ومن ثم ترادفت غزوات أبي العشائر عليهم حتى بلغ الشهرة العظيمة.

---

[1] تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - فليب حتي - ص.

[2] تاريخ الحروب الصليبية - ج٢ - نقله إلى العربية - د. السيد الباز العريني - ص ٥٣٧.

اغتيال حاكم صور:

كان حاكم مدينة صور ابن أخت ملك فرنسا من أبيه، وابن أخت ملك إنكلترا من أمه، كلف سنان راشد الدين اثنين من فدائييه لقتله. وقبل أن يتحركا تنكرا بزي الرهبان وفي صور اتصلا باثنين من قادة الصليبيين، فأقاما معهما ستة أشهر يظهران العبادة. فأنس إليهما الحاكم ووثق بهما. وجاءت مناسبة أقام فيها أسقف صور وليمة للحاكم، وكان الفدائيان حاضرين في حرم الأسقفية بحكم منصبهما الروحي، فانتظراه حتى خرج، فوثبا عليه وطعناه طعنات سريعة لم تكن قاتلة. وهرب أحدهما ودخل كنيسة قريبة هناك وصادف حمل الحاكم إلى تلك الكنيسة ليعالج فوثب عليه الفدائي، وأجهز عليه. وقد قبض الصليبيون على الفدائيين، وقتلوهما تحت التعذيب.

قلعة بانياس:

تذكر المصادر التاريخية أن الداعي الإسماعيلي بهرام استطاع أن يجذب إليه كثيراً من أمراء الشام، وأتابكتها. وتنازل صاحب دمشق للإسماعيلية عن قلعة بانياس (بانياس إحدى مدن الجولان الذي يحتله العدو الصهيوني) فتوسع الاسماعيليون في تلك المنطقة رغبة في تأمين امارة قوية تقف في وجه الغارات الصليبية، فهاجم بهرام وادي التيم وملك عدة حصون فيه.

أسس بهرام فرقة منظمة من الفدائيين تمكن بواسطتها من القضاء على بعض المسؤولين المعادين للإسماعيلية، كما أرسل الفدائي علي البحري إلى طرابلس الشام للانتقام من القائد الصليبي (دوسانجيل) الذي فتك بالاسماعيلية، وأحرق مكتبتهم في طرابلس الشام.

حمى الاسماعيليون قسماً هاماً من سورية من عدوان الفرنجة، وكبدوهم الخسائر الفادحة، وكان لهم دور كبير في الحاق الهزيمة بهم، وبخاصة بعد أن تعاون معهم صلاح الدين الأيوبي الذي قدر لهم إقدامهم وتضحياتهم فقدم لهم عشر قرى الحقها سنان بمصياف، وذلك عندما قتل الفدائيون الاسماعيليون أمير صور الصليبي كونراد مونفراتي، كما كافأ صلاح الدين أولئك الفدائيين.

مقاومة التتار:

انضم الاسماعيليون إلى الملك قطز عندما سار من مصر إلى الشام لملاقاة التتار ومنازلتهم وقاتلوا معه في عين جالوت.

تمكن المغول سنة ١٢٦٠م من احتلال مصياف والحقوا خسائر كبيرة فيها وبقلاع الإسماعيليين!

الحشاشون!

أبلى الإسماعيليون في مقاومة الغزاة أياً كانوا بلاء حسناً، يشهد على ذلك الأصدقاء والأعداء على حد سواء في الماضي والحاضر!

حار الأعداء، ومنهم الصليبيون في معرفة أسباب الظاهرات البطولية التي كان يقوم بها الفدائيون الاسماعيليون، فلم يجدوا سبباً لذلك إلا تعاطيهم (الحشيش) فسموهم الحشاشين، يقول فاير في دائرة المعارف الإسلامية: "إن الاسم أطلق على الفريق الإسلامي الذي كان يحتل أيام الحروب الصليبية القلاع الجبلية في الشام وغيرها من بلاد المسلمين. وقد أورد قاموس اكسفورد التاريخي[1] جملة تعريفات تشعر بهذا المعنى. وهو يفسر الكلمة على النحو الآتي: الحشاشون هم مسلمون متعصبون أيام الحروب الصليبية كان يرسلهم شيخهم، شيخ الجبل (سنان راشد الدين) للفتك بالزعماء المسيحيين (الصليبيين).

ويقول القاموس أيضاً إنها أطلقت على الإسماعيلية الذين اعتادوا على تخدير أنفسهم بالحشيشة عند الاستعداد لإهلاك ملك أو أي شخص آخر. وأورد القاموس أيضاً تعريفاً للاسم يرجع إلى عام ١٦٠٣م جاء فيه أنه أطلق على فئة من "الخطرين من المحمديين". وفي تعريف آخر يعود لعام ١٦١١م يقول إنها فرقة دموية من (السراسين: الاسم الأوروبي الذي أطلق على المسلمين في القرون الوسطى) يقومون بها دون أدنى خوف من العذاب بالفتك بأي أمير يُشك في فسقه ومروقة.

---

[1] The Oxford English Dictionarg مادة Assasin طبعة 1978. المجلد الأول.

ذكر ماركو بولو [1] هذا الاسم (الحشاشون) في رواية أوردها عن تخدير المريد الإسماعيلي بالأفيون، ثم نقله إلى رياض مونقة أعدت وفق أوصاف الجنة المذكورة في القرآن، ثم إخراجه منها بعد أن يكون قد رآها بنفسه، ليكون أكثر اندفاعاً في تنفيذ الأوامر، وقبول التضحية من أجل أن يعود إلى تلك الجنة.

يؤكد المنصفون أن ما قاله ماركو بولو هو افتراء نقله عن أعداء الإسماعيليين، كما أن معلوماته عن المسلمين غير موثوقة، لعدم دقة نقله من جهة، وتعصبه العدائي.

ومما يؤسف له أن ابن خلدون يردد الاسم الذي اختلقه الصليبيون فيقول[2]: «وأما جبل اللكام المعترض بين البحر الأبيض المتوسط، وآخر الجزء فيصاقبه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوباً من غربيه حصن الخوابي وهو للحشيشه الإسماعيلية، ويعرفون لهذا العهد بالفداوية ويسمى مصيات وهو قبالة انطرطوس (طرطوس) وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في الشمال من حمص).

وجاء بعد ابن خلدون من أعاد أقواله دون روية، أو تمحيص!

أن جملة من الوقائع تفند وتدحض أقوال هؤلاء، في مقدمتها أن من يتعاطى الحشيش يتعذر عليه أن يكون فدائياً من ذلك الطراز الخارق الذي مثله الفدائيون الإسماعيليون.

بذل أبو حامد الغزالي كل ما في وسعه لفضح الباطنية ولم يذكر هذا الاسم الجارح (الحشاشون) بين عشرة أسماء نص عليها في كتابه (فضائح الباطنية) وشرح معانيها ومدلولاتها ولم يكن الغزالي ليشيح عن هذا الاسم تورعاً!

ملاحدة، زنادقة، باطنية، جميعها مفردات تتدرج في القاموس الإرهابي الذي استخدمته جميع القوى الظلامية ضد المتنورين والمناضلين ضد الظلم والاضطهاد وأضافت إليه مفردة جديدة هي (الحشاشون)!

---

[1] **The Travels of Marcopolo – Iondon 1967 – p 77-13.**

[2] مقدمة ابن خلدون ـ ص ٦٨.

الفصل الثالث

التأويل وصعود الفلسفة

- المعارضة وقضية الإنسان
- الشيعة
- الإنسان ... والجنة
- المعتزلة
- الأصول الخمسة
- الصوفية
- الشطحات

المعارضة وقضية الإنسان:

ضمت المعارضة الغالبية العظمى من المنتجين، في الريف والمدينة، وكذلك الحرفين والصناع.

لم تكن المعارضة كلاً واحداً متجانساً، سواء من حيث تركيبها الطبقي، أو من حيث مصالحها الاقتصادية والاجتماعية، بالرغم من إنها كانت تسير تحت الراية الدينية، يضاف إلى ذلك حملات القمع الوحشية التي تعرضت لها، فنشأت، في صفوفها خلافات حادة ومتناقضة، وتجلت تلك الاختلافات في ا لتفسيرات، والممارسات العملية. وتمثلت المعارضة في الأحزاب والقوى التي تبنت قضية (الإنسان) بوصفه إماماً، أو ولياً أو حراً وعبر عنها: الشيعة و الصوفية والمعتزلة، والإسماعيلية، واتخذت هذه القوى من (الظاهر والباطن والتأويل) منطلقاً لها في فهم القرآن الكريم، والسنة النبوية، واستنباط الأحكام منهما.

الشيعة:

أطلق اسم (الطالبيون) على الفريق الذي ناصر الإمام علي بن أبي طالب الخليفة الرابع، ثم صار يطلق عليهم اسم (العلويون) وفيما بعد أطلق عليهم اسم الشيعة، ثم (الشيعة الإمامية)

إن الإمامية ليست فرقة واحدة كما يتبادر الى الذهن، بل هي فرق كثيرة متعددة، كالباقرية والجعفرية، والواقفة، والناووسية التي قالت بأن جعفر الصادق (الإمام السادس) حي لم يمت ولن يموت حتى يظهر، والأفطحية الذين قالوا بامامة عبد الله الأفطح بن جعفر الصادق، والإسماعيلية الواقفة الذين قالوا بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق. والموسوية المفضلية الذين يقولون بإمامة موسى بن جعفر الصادق، والإثنا عشرية[1] أما الذين يطلق عليهم اسم (الشيعة أو الجعفرية أو الإثنا عشرية أو الإمامية فهم فرقة واحدة)[2]

---

[1] إسلام بلا مذاهب - د. مصطفى الشكعة ص ١٩١

[2] المصدر السابق ص ١٩٢

والاثنا عشرية لا يقبلون الأحاديث من أي من الرواة أو المحدثين، بل لابد أن تكون قد رويت عن طريق أهل البيت، عن جدهم علي بن أبي طالب)[1] لأن هؤلاء الرواة والمحدثين غير معتمدين عندهم.

لا يأخذ الاثنا عشرية بالقياس كمصدر من مصادر التشريع، وينسبون إلى بعض أئمتهم القول بأن الشريعة إذا قيست محق الدين. ويروون عن الإمام جعفر الصادق قوله لأبي حنيفة، فإن أول من قاس الشيطان، قال (خلقتني من نار وخلقته من طين).

إن التشيع هو المذهب الإسلامي الأول الذي (عني بالمنقول والمعقول جميعاً. واستطاع أن يسلك بين المذاهب الإسلامية طريقاً شاملاً واسع الآفاق)[2].

ناضل الشيعة لاسترداد حقهم في السلطة، ولإعادة الإسلام إلى وجهه الحقيقي، الذي شوهه الظالمون.

جوبه نضالهم بأشد أنواع القمع، وبمختلف أشكاله، فلجؤوا إلى بناء تنظيمات، وهياكل، تكون أدوات للنضال، ونشروا دعاة لهم، في البلاد العربية الإسلامية، وأتقنوا العمل السري والعلني، فحققوا جماهيرية واسعة بين المنتجين والكادحين.

تميز أئمتهم وعلماؤهم ليس بالاطلاع على علوم ومعارف عصرهم وحسب، بل عملوا على تطويرها وإغنائها وعلى سبيل المثال لا الحصر،يعد الإمام السادس جعفر الصادق(ع) من أعظم الشخصيات العلمية، في عصره، وقد أوجدت هذه الشخصية مدارس خاصة في الإسلام، كان لها تأثير قوي في التيارات الفكرية الإسلامية، وقد تخرج من تلك المدارس فرق عديدة، أهمها : المعتزلة، والصوفية، والجعفرية، والحركات الباطنية.

كان الإمام جعفر الصادق عليه السلام من ذوي الرأي الصائب والفتوى الصالحة، غزير العلم واسع المعرفة والإطلاع راجح العقل نافذ البصيرة وافر

---

[1] المصدر السابق ص ١٩٧

[2] الهفت الشريف ص ١٧٣

الحكمة كامل الأدب زاهداً ورعاً متسامحاً، وكان عالماً في الدين والفلسفة، والفقه والكيمياء، ومن تلامذته المشهورين أبو الكيمياء العربية : جابر بن حيان.

يجمع الباحثون على أن الإمام جعفر هو (واضع فقه الفكر الشيعي بأجمعه)[1] كما كان أستاذاً لأبي حنيفة (ت ١٥٠ هجرية)، وأستاذاً لمالك (ت سنة ١٧٩هجرية)، والأخير كان أستاذاً للشافعي الذي كان أستاذاً لابن حنبل، وبالتالي يمكن القول إنه إمام لجميع المسلمين مباشرة أو بالسند المتصل.

الإنسان ... والجنة:

سئل الإمام جعفر الصادق عن الجنة والنار، فقال[2]: (الجنة ههنا، قلت: مولاي في الدنيا؟ قال: نعم قلت له: وأين النار ؟ قال : في حيث يشاء الله فقلت: مولاي، الجنة في الأرض ؟ قال : نعم.إن الله تعالى قال : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ، سورة الزمر _الآية ٧٤).وروي عنه أنه قال : قصم ظهري رجلان : مؤمن فاسق، ومنافق ناسك. هذا يدعو إلى باطله بنسكه، وذلك ينفر عن حقه بفسقه)[3] ومن أقوال الإمام الصادق أيضاً : (لا تنظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده، فإن ذلك ربما كان شيئاً قد اعتاد عليه، ولكن انظروا إلى صدق حديثه وأداء الأمانة)[4] قد لا تثير مثل هذه الأقوال سخط الظالمين وحقدهم، ولكنهم لن يتساهلوا إطلاقا مع مثل القول الآتي : جميع ما خلق الله في الدنيا للمؤمنين مشاع غير مقسوم وما لأعداء الله فيه نصيب). رواه الإمام جعفر عن جده رسول الله ﷺ [5] أو جوابه على سؤال : ماحق المسلم على المسلم ؟ قال :(له سبع حقوق وواجبات :

---

[1] الخطاب الإسماعيلي في التجسيد الفكري الإسلامي المعاصر / ص ١٢٣ - ١٢٤

[2] الهفت الشريف ص ١٧٣

[3] المجالس المؤيدية - المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي - تحقيق وتقديم د. مصطفى غالب ص ١٥

[4] تأويل الدعائم للقاضي النعمان ص ٢٥

[5] الهفت الشريف ص ١٧٣

أن تحب لأخيك المسلم ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لنفسك. أن لا تشبع و يجوع، ولا تروى ويظمأ، ولا تلبس ويعرى) [1].

توفي الإمام جعفر الصادق سنة ١٤٧وفي رواية ١٤٨ هجرية، ٧٦٤ ميلادية.

المعتزلة:

نمت البذور العقلانية التي غرسها، في العهد الأموي أشخاص قدموا حياتهم قرباناً، في سبيل المعرفة والنضال، مثل الجعد بن درهم، وغيلان الدمشقي، والجهم بن صفوان... وغيرهم، وأصبحت تلك البذور أشجاراً وارفة الظلال تمثلت بالمعتزلة، أو حركة الاعتزال. تعددت أقوال المؤرخين والباحثين في نشأة المعتزلة وسبب تسميتهم، فذهب فريق إلى القول بأن واصل بين عطاء رأس المعتزلة كان تلميذاً للحسن البصري وكان حاضراً حلقته الدراسية في مسجد البصرة حين تقدم رجل يسأل الحسن عن رأي الدين في مرتكب الكبيرة فأجابه بأنه عاص. ولكن واصل قال بأن مرتكب الكبيرة ليس بكافر مطلق ولا بمؤمن مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، واعتزل منذ ذلك اليوم حلقة البصري، فسمي هو واتباعه بالمعتزلة، وذهب فريق ثان إلى القول إن التسمية جاءت بسبب ما اشتهر به أعلام تلك الفرقة من الاعتزال عن مفاتن الحياة وملذاتها، والعكوف في محاريب الفكر والبحث العلمي ومنهم من قال: إن السبب هو عزل تلك الفرقة لمرتكب الكبيرة من مجموع المؤمنين والكافرين.. إلى غير ذلك من الأقوال.

وعلى الرغم من محاربة المعتزلة بكل الوسائل، ومنها اختلاق أحاديث عن النبيﷺ منها: قال الأوزاعي*، قال رسول الله ﷺ ((ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة: الزائد في كتاب الله، والمكذب بقدر الله، وثور بن يزيد أحدهم (زيد كان راوياً للأحاديث) ثم قال: لا تأخذ دينك عنه، ولا عن محمد بن اسحاق فإنه كان يرى الاعتزال))، على الرغم من كل ذلك، فقد انتشرت

---

[1] عقائد الإمامية - الشيخ محمد رضا المظفر ص ١٥٨ و ١٦٠

[*] الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة – خليل داود الزر – لبنان ١٩٧١ – ص١٥٧.

هذه الحركة، في أنحاء البلاد العربية - الإسلامية انتشاراً واسعاً، واستقطبت شخصيات بارزة من أقوى الشخصيات، في تاريخنا الفكري، من أمثال: واصل بن عطاء، وإبراهيم بن سيار النظام، والجاحظ ...، وكان لهؤلاء تأثير بعيد المدى في مختلف الميادين العقلية. وتعتبر حركة الاعتزال أول ثورة في تاريخ الفكر العربي_ الإسلامي.

تستند نظرية المعرفة عندهم على العقل. والعقل عندهم هو تلك الحاسة اللطيفة، والجوهر الذي يميز الإنسان عن الحيوان، وهو النور الذي يستضاء به، لذلك فقد أطلقوا للعقل العنان، في البحث في جميع المسائل من غير أن يحده أي حد وجعلوا له الحق أن يبحث في السماء، وفي الأرض، وفي الله تعالى، وفي الإنسان، وفيما دقّ وجلّ!

ويرى المعتزلة أن جميع أفعال العباد من حركات وسكنات وأفعال وعقود لم يخلقها الله تعالى، بل خلقها العباد.

موجز القول: حاول المعتزلة تقديم مبادئ العقيدة الإسلامية، في صورة يقبلها العقل!

كان أهم عصر في تاريخهم من ١٠٠ -٢٥٥هـ /٧١٨ - ٨٦٩ ميلادية/، إذ تكونوا ونموا، في هذه الفترة.

قامت سياستهم في العهد الأموي على شقين:

أ) محاولة احتواء بعض الخلفاء وترشيدهم، وقد نجحوا في احتواء الخليفتين: يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ومروان بن محمد آخر خليفة أموي.

ب) العمل السري المنظم.

ولما خاب أملهم في بني أمية، وتيقنوا من تنكر بني العباس للعدالة والإصلاح، عولوا على الدعوة لإمام منهم وفق تنظيم محكم، وسياسة مرسومة. شاركوا أوائل العصر العباسي في حركة مسلحة كبرى قادها إبراهيم بن عبد الله الحسني في البصرة وكادت تقضي على الخلافة العباسية لحساب المعارضة الإسلامية لكنها فشلت ولم يظهر للمعتزلة أي نشاط سياسي هام بعد هذه الحركة.

الأصول الخمسة:

انقسمت المعتزلة إلى أكثر من عشرين فرقة، إلا أن أصولا خمسة ظلت تجمعهم، وهي:

١. التوحيد، ويعني: أن الله واحد أحد، ليس كمثله شيء، وهو ليس بجسم، ولا جثة، ولا صورة. ولا شخص، ولا جوهر ولا عرض، ولا بذي طعم أو رائحة، أو مجسة. ولا بذي حرارة، أو برودة، أو رطوبة، أو يبوسة، ولا طول أو عرض، أو عمق له، ولا ذو اجتماع أو افتراق، لا يتحرك ولا يسكن، ولا يتبعض، وليس بذي جهات، ولا يجري عليه زمان، لا تحيط به الأقدار ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الحواس ولا تجري عليه الآفات.

٢. العدل، ومعناه: إن الله تعالى لا يحب الفساد، ولا يخلق أفعال العباد، وأنه لم يأمر إلا بما أراد، ولا ينهى إلا عما كره. وأن أفعال العباد مخلوقة لهم ومن عملهم، لا من عمل الله تعالى، وباختيارهم المحض. ومادام الإنسان يخلق أفعاله فهو مسؤول عنها من خير أو شر، يثاب لفعله الخير ويعاقب وجوباً لفعله الشر.

٣. الوعد والوعيد: فوعد الله بالثواب واقع. ووعيده بالعقاب واقع أيضاً، ووعده بقبول التوبة النصوح واقع.

٤. المنزلة بين المنزلتين: وتعني أن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن مطلق ولا كافر مطلق، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا يتحول عنها (أنه فاسق).

٥. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فمن المعتزلة من رأى أن هذا الوجوب يكفي فيه القلب واللسان إن قدر عليه، ولا يصح أن يلجأ في ذلك إلى استعمال القوة باليد، أو السيف. ويرى غيرهم أن سلّ السيوف (في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) واجب إذا لم يمكن دفع المنكر إلا بذلك.

التأويل:

أوّل المعتزلة نصوص القرآن تبعاً لما يقتضيه العقل والمنطق، ورفضوا الوقوف عند حد اللفظ والنص وظاهر الشرع.

صعود الفلسفة:

إن تطور الصراع الاجتماعي والإيديولوجي، في المجتمع العباسي خلال القرن الثالث الهجري، الحافل بأخصب أنواع التناقضات، والمفارقات التاريخية أوجدت ظروفاً بالغة التعقيد بحيث كانت تتطلب شكلاً أعلى من الشكل الكلامي (علم الكلام الذي سلكه المعتزلة كنهج لها)، الذي أصبح قاصراً عن تفسير الوقائع الجديدة التي أفرزتها الحياة، كما أن الحرب الضروس التي شنها عدد من الخلفاء العباسيين ضد المعتزلة، وشاركت فيها قوى واسعة من المغرر بها باسم الدين، أو من علماء الكلام، كالأشعري الذي استخدم نهج المعتزلة ذاته لتفنيد آرائهم، فلوحق معتنقو الاعتزال وزج بالكثير من قادتهم في غياهب السجون، وأحرقت كتبهم ومؤلفاتهم، إضافة إلى ما حدث من انقسامات، في هذه الحركة... لكل هذه الأسباب أسدل الستار، على اول ثورة، في الفكر العربي_ الإسلامي!

صحيح أن حركة الاعتزال قد أخليت من الساحة، ولكنه ليس صحيحاً أن الظلام سينتصر على النور، فقد أثمرت شجرة الحياة الخضراء فاكهة لذيذة، هي الفلسفة، واندارت إليها، على نحو أو آخر القوى المناضلة، واستمرت خفاقة راية المعرفة والنضال.

الصوفية:

تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تدعو إلى الزهد والتقشف، في الحياة الدنيا، ومارس الزهد عدد من كبار الصحابة، في مقدمتهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)، وتطورت هذه الحركة فيما بعد إلى حركة واسعة عرفت بالصوفية، حيث وضعت مصطلحات ومعان لها، تعارف عليها الصوفيون فيما بينهم، وتثير هذه المصطلحات اللبس والغموض لدى الكثير من الناس. ومع هذا فقد ضمت تعاليمها الشعبية جموعاً غفيرة من المسلمين. كتب د. حسين مروة[1]: (ويمكن أن ننظر إلى التصوف في تلك المرحلة كشكل من أشكال الوعي الفلسفي العربي – الإسلامي في العصر الوسيط).

---

[1] النزعات المادية – د. مروة – ص٢١٢

تعددت الأقوال حول المؤسس الحقيقي للتصوف، فيقول نيكلسون[1] : (إنه ذا النون المصري)، ويؤيده في ذلك فيليب حتي، والبير نصري نادر، في حين يرى آخرون أنه الحسن البصري (ت ١١٠هـ/ ٧٢٨م)، ويصفونه بأنه أبو التصوف الإسلامي. ويرده الدارسون للتصوف الإسلامي إلى أصول الدين الإسلامي نفسه، في حين يرده بعضهم إلى مؤثرات هندية، أو يونانية. ومما لا شك فيه فإن التصوف مثله مثل أي ظاهرة اجتماعية، نتج وينتج عن علاقات اجتماعية معينة، في ظروف تاريخية معينة، كما أن لكل ظاهرة ماض وحاضر ومستقبل. فالتصوف بدأ كينونته الجنينية زهداً، كمسلك عام، ثم تطور إلى موقف فكري يقوم على نظرية التأويل الباطني، وهي نظرية دينية فلسفية تتلخص في أن الله تعالى جعل كل معاني الدين، في المخلوقات التي تحيط بالإنسان وهو خليفة الله في أرضه، ولما كان التأويل، والظاهر والباطن، مفاهيم تعني أول ما تعنيه رفض إيديولوجية النظام الحاكم، التي ترى في رأس النظام، حامي الشريعة، كما أنه المتصرف في شؤون العباد. ويعتقد المتصوفة أنه يمكن لأهل الولاية أن يصلوا إلى الله مباشرة دون واسطة، وكل مسلم يمكنه أن يكون من أهل الولاية. وأن الوجدان، أو العيان هو الطريق اليقيني للمعرفة.

أما إذا أردنا الكلام على نحو أكثر تفصيلاً فإنه يمكن القول: إن ظاهرة التصوف قطعت في مسيرتها الطويلة، مراحل متعددة، منها:

١- المرحلة الأولى، وهي تغطي القرون الثلاثة الأولى من تاريخ الإسلام، أي ق٧ إلى ق٩ للميلاد. وكان التصوف خلال هذه المرحلة يبحث عن حقه في الوجود، وفي التغلب على بعض الأحكام المسبقة التي كانت تعارضه بتشجيع من السلطات الرسمية التي يغلب عليها الحساسية والتشكيك، لدرجة أن لبس الصوف بحد ذاته كان يشكل وجهاً من وجوه التحدي والمعارضة السلبية للأرستقراطية الأموية الحاكمة.

٢- المرحلة الثانية، وتتجلى بمحاولة التوفيق بين التصوف وخصومه، وقد نجح أبو حامد الغزالي في هذه المحاولة، وحقق انتصاراً كبيراً على خصومه.

---

[1] في التصوف الإسلامي – ترجمة أبو العلا عفيفي – القاهرة ١٩٤٧ – ص٧

٣- المرحلة الثالثة، تتميز بانتشار المؤلفات الكبرى في التصوف ابتداءً من القرن السادس الهجري إلى التاسع /١٢ -١٥م/. كما تتميز هذه المرحلة بدخول التصوف في عصر التدهور، وبخاصة منذ القرن العاشر للهجرة / القرن السادس عشر الميلادي/ وأخذ يتحول إلى حركة وحيدة الجانب انقلبت في أحيان كثيرة إلى حركة رجعية طفيلية لعبت دوراً خطيراً في (عملية) التخدير الاجتماعي، وفي خدمة الطبقات الرجعية وبخاصة في العهد العثماني .

أعلام التصوف الإسلامي:

حلّقت في أجواء التصوف شخصيات، منها: رابعة العدوية التي أضافت إلى التأمل الصوفي نزعة حب الخالق، وطاعته دون غرض ذاتي، وأبو يزيد البسطامي صاحب نظرية الإتحاد التي قادت إلى فكرة اتحاد الناسوت باللاهوت، والحلاج صاحب نظرية الحلول الإلهي، في المخلوقات، والغزالي الذي استند إلى تعاليم الكتاب والسنة، في البحث عن المعرفة اليقينية، والكشف بتصفية النفس من أدرانها، وابن عربي والسهروردي، وابن سبعين، صاحب مذهب الوحدة المطلقة، وابن الفارض، في وحدته الشهودية.

ذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم، ولد بإخميم من أعمال مصر حوالي سنة ١٨٠ هـ، وتوفي سنة ٢٤٥ هـ /٨٥٩م وهو الذي وضع الحدود بين ثلاثة أنواع للمعرفة، هي:

١- المعرفة الإيمانية الصرف.

٢- المعرفة العقلية البرهانية.

٣- المعرفة الصوفية، وهي خاصة بأهل ولاية الله.

ومن خصائص هذه المعرفة التي ستحدد مضمونها الإيديولوجي:

أ) أصحاب هذه المعرفة هم من أهل الولاية.

ب) أهل الولاية ذوو كرامات، ويجترحون خوارق كالأنبياء.

ت) يُظهر الله لأوليائه ما لا يظهره لأنبيائه.

وعندما أخذ الفكر العربي – الإسلامي طريقه إلى الاستقلال عن علم الكلام سجل ظاهرتين يجمعهما إطار واحد، وهو الإطار الفلسفي، ولكنهما – في الوقت نفسه – ظاهرتان مختلفتان إلى حد التناقض، من حيث التوجه النظري الأساسي لكل منهما، وبخاصة، توجه كل منهما في نظرية المعرفة، أما الظاهرتان فهما:

١- ظاهرة الفلسفة بمعناها الخاص، كعلم يعتمد النظر العقلي في تحصيل المعرفة، مستخدماً أسلوب المنطق الصوري. وكان أبو يوسف بن يعقوب بن إسحاق الكندي هو الممثل الأول لهذه الظاهرة الأولى.

٢- ظاهرة التصوف النظري كعلم يعتمد الكشف الذاتي، مستخدماً أسلوب الكبت النفسي والجسدي، أي الأسلوب السلوكي نفسه الذي اتبعه زهاد ما قبل المئتين للهجرة. من هنا فإن التصوف هو جزء من الحركة الفلسفية المستقلة لأنه في شكله النظري يتعامل مع المقولات والمفاهيم، أي المجردات، كما هو شأن الفلسفة (بمعناها الخاص)، وإن كانت مقولات التصوف ومفاهيمه تختلف عن مقولات الفلسفة العقلانية ومفاهيمها. ويرى د. إبراهيم مدكور أنه لا يمكن أن يدرس تاريخ الفكر الفلسفي الإسلامي، في العصور الأخيرة دراسة كاملة، منعزلاً عمّا كتبه المتصوفة وعلماء الكلام[1]

جاء في القرآن الكريم: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم. فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وذلك خير وأحسن تأويلاً) (سورة النساء -الآية ٥٩).

إن الأئمة من آل البيت هم أولو الأمر عند الشيعة. وهم الخلفاء القائمون على رأس النظام الحاكم عند السنة. أما عند الصوفية فأن أولي الأمر، هم أهل الولاية. والولاية شاملة يستحقها عندهم كل مسلم جمع الشروط المطلوبة في الولي.

---

[1] قوت القلوب – أبو طالب المكي – القاهرة ١٩٣٢ – ج١ - ص٤٦

ولما كان الصوفيون قد أخذوا بنظرية المعرفة على الطريقة العرفانية (أي معرفة الله مباشرة دون واسطة)، فإن هذا يستتبع العمل على هدم الجدار (الرسمي) الفاصل بين الله والإنسان، والشريعة هي ذلك الجدار. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن الهدف الأبعد هو هدم الجدار الفاصل بين الإنسان والإنسان، أي بين إرادة الحاكم المطلق وإرادة الناس المحكومين!

فتحت مسألة الظاهر والباطن طريقاً عريضاً أمام الصوفية لمعارضة الفكر الديني الرسمي: عقيدة وشريعة. فالظاهر هو منطق القرآن الذي تؤديه الدلالات اللغوية والبيانية المباشرة كما يفهمها عامة الناس. أما الباطن فهو المضمون الحقيقي الذي لا ينكشف إلا للذين وصفتهم الآية القرآنية: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} (سورة آل عمران – الآية 7). أي أن التأويل يتم في [العرفان]، والصوفيون هم العارفون. لذا فقد سمّوا المضمون الأول بـ (الشريعة)، وسموا المضمون الثاني بـ (الحقيقة)، ووصلوا بعد ذلك إلى القول بسقوط الشريعة إذا كشفت الحقيقة، أي عدم التزام الصوفي بإحكام الشريعة حين تتكشف له الحقيقة.

والتأويل هو عمليه عقلية أو ذوقية إلهامية تسمو إلى إدراك المقاصد الخفية والعميقة مما لا يدركه سائر الناس. وقد بيّن الإمام القشيري أن التأويل للخواص، وأن تفسير التنزيل للعوام.

أما الاختلاف في تأويلات الصوفيين، فيعود إلى التفاوت العلمي والثقافي بين مؤول وآخر، وهم يرون أن ذلك يعود إلى الخلاف في الكشف والإلهام الذي هو خصوصية لكل شيخ..، ويجب ألا يغيب عن البال أن شيوخهم الكبار كالغزالي وابن عربي وابن سبعين.. كانوا من المتمرسين بالثقافات المختلفة، والعارفين بالأديان، وفلسفات الشرق واليونان.

الشطحات:

وأخيراً، وصل الأمر ببعض المتصوفة إلى النطق بكلمات تثير الكثير من اللبس لدى السامعين، في حين تكون مفهومة عند جماعتهم، وأطلق عليها شطحات، وقد تؤدي للحكم بكفرهم وارتدادهم عن الإسلام، ومنها، قول أبي يزيد البسطامي: (تا لله إن لوائي أعظم من لواء محمد. لوائي من نور تحته الجان والإنس، وكلهم من النبيين)[1].

ويروى أن الحلاج كان يصيح في بغداد ويقول: (يا أهل الإسلام أغيثوني من الله، فلا يتركني ونفسي فآنس بها، ولا يأخذني من نفسي فاستريح منها، وهذا دلال لا أطيقهِ) [2] ومن شعره:

كانت لقلبي أهواء مفرقة	فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائي
فصار يحسدني من كنت أحسده	وصرتُ مولى الورى إذ صرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم	شغلاً بذكرك يا ديني ودنياي

أن تصور الحلاج للاتحاد بالله حيث تكمل النفس وتتقدس وتصبح ربانية كأنها إرادة حية في الله، وتنطبق في رأيه على كل إنسان. وبسبب هذا التصور دانته الأوساط الصوفية والفقهية والسياسية، ففي تاريخ اليافعي، أن علماء بغداد اجمعوا على أن حسين بن منصور الحلاج، وهو من أعاظم الصوفية، وإليه تنسب الحلاجية، واجب القتل لما أطلعوا عليه من سوء عقائده فكتبوا محضراً كتب فيه كل واحد من علماء بغداد وسجلوه بالخواتيم وأرسلوه إلى الخليفة المقتدر بالله فورد الحكم منه أن يضرب ألف سوط، ثم يعزل رأسه عن جسده، وتحرق جثته. ففعل به كما أمر الخليفة وكان ذلك في ٢٤ ذي العقدة ٣٠٩ هـ الموافق ٩٢٢/٣/٢٧م.

ويلاحظ أن أكثرية المتصوفة الإسلاميين يومذاك، كانوا ينتمون في وقت واحد إلى شعب غير عربي، كالشعب الفارسي في الأغلب، وإلى فئات اجتماعية تجارية وحرفية من الشعب نفسه.

---

[1] العقيدة والشريعة في الإسلام – غولد تسهير – ص١٤٧

[2] في الفلسفة الإسلامية منهج و تطبيق – د. إبراهيم مدكور – القاهرة ١٩٦٨ – ص٥٧

توزعت الصوفية بين الاتجاهات الآتية: مذهب الاتحاد أو الحلول، وحدة الوجود، الإشراق... الخ. كما أن التوجه العام نحو إحلال الإنسان، أثناء هذه الصلة، محلاً سامياً أكسبه صفة (إلهية) وبالقدر نفسه يضفي على الله صفة (إنسانية). إن كل مذهب من مذاهب التصوف الفلسفي الإسلامي كان يستند، أثناء بناء أسسه النظرية، وتشييد الهيكل العام لتعاليمه، إلى الكثير من المبادئ والمقولات التي يستند إليها النظر العقلي عند المتكلمين المعتزلة، ومن ذلك المسائل والمناهج، ثم الفلاسفة الإسلاميين.

الفصل الرابع

الحركة الإسماعيلية

- نسب الإسماعيلية
- الدول الإسماعيلية ومقاومة الغزاة
- الدولة القرمطية في البحرين
- الدولة الفاطمية

نسب الإسماعيلية:

تعددت الأقوال، وتضاربت حول نسب الإسماعيلية، وأصولها، فهناك من أرجعهم إلى أصول فارسية، وأن ديانتهم مؤلفة من الوثنية، واليهودية، والمسيحية، والإسلامية، أو أن الذين أوجدوها كانوا زرداشتيين، ومانويين، وديصانيين...إلخ.

وذهب بعض المستشرقين أمثال كاراديغو، وبلوشنيه إلى أن الإسماعيلية حركة قومية وعنصرية أكثر منها حركة دينية، وإنها ثورة فارس الآرية ضد سامية الإسلام. طبعاً هناك مستشرقون آخرون رفضوا تلك الأقوال وفندوها، ومنهم : فلهوزن، وغولدزيهر. وأكد ماسينيون (إن الحركة الإسماعيلية تمثل يقظة الفكر الإسلامي)[1].

ووصفهم البعض بأنهم فرقة من غلاة الشيعة. لا يخفي الإسماعيليون انتماءهم للشيعة، فقد ظلت الشيعة الإمامية معيناً لا ينضب يمد الإسماعيلية بمشهوري الدعاة[2] الذين كان لهم أثر كبير في تاريخ الدعوة الإسماعيلية، مثل ابن حوشب، وابن الفضل اليمني اللذين قامت بجهودهما الدعوة في اليمن. واستطاع ابن حوشب تأسيس أول دولة اسماعيلية في بلاد اليمن سنة ٢٦٦ هـ /٨٧٩ ميلادية. ويرجع الفضل لأبي عبد الله الشيعي في نشر الدعوة الإسماعيلية، وتأسيس الدولة الفاطمية، في المغرب.

أما بالنسبة للانتماء الباطني للإسماعيليين فهم لا يخفونه، وقد قال الداعي الشيرازي: (من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منا، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه)[3].

---

[1] أبو يزيد البسطامي – عبد الرحمن بدوي – شطحات الصوفية – ص٢١

[2] الكشكول الكامل – بهاء الدين العاملي – ج٢ - ص٥٤

[3] أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة - برنارد لويس ترجمة حكمت تلحوق- ص ١٤٨

والقول بأنها ثورة فارس الآرية... ، فهو كلام في منتهى السخف، لأن السامية والآرية لم تكونا مطروحتين يومذاك _عدا عن الروابط الوشيجة بين الفرس والعرب خلال التاريخ الطويل، وعدا عن أن الدين الإسلامي لا يفرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى. ومن الواضح أن الهدف من هذه التهمة هو الابتعاد عن الجوهر الحقيقي للصراع الاجتماعي الذي كان سائداً يومذاك.

وحسب المصادر الإسماعيلية فإنهم ينتسبون للإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق، وقد يرجعون نسبهم إلى أقدم من ذلك.

لن أخوض في هذه المسألة، لأن الذي يعنيني هو: القوى التي استقطبتها هذه الحركة، والإنجازات التي حققتها، والآثار التي تركتها على الحركات اللاحقة، وأؤيد ما قاله ماسينيون: إنها حركة تمثل يقظة الفكر الإسلامي، وقد دكت كثيراً من معاقل الظلم، وأقامت منارات شاهقة في تاريخنا العربي_ الإسلامي.

اتصفت الحركة الإسماعيلية بأنها كانت أكثر الحركات الباطنية اتساعاً، وأكثرها تنظيماً. وكانت تمتلك برنامجاً احتوى مطالب اجتماعية، وامتلكت نظاماً داخلياً. وفي النصف الثاني من القرن الثاني الهجري بدأت الإسماعيلية نشاطها السري الذي تطور إلى حركة كاسحة غطت العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه وكانت وسيلتها الضاربة في مرحلة الظهور هي العمل المسلح.

آمن الإسماعيليون بسيادة العقل، وبإمكانية استيعاب الكون. كما آمنوا بالجدلية باعتبارها أسلوب الوصول إلى الحقيقة.

سعت الخلافة العباسية إلى الحد من نشاط الحركة الإسماعيلية بتضييق الخناق على رموزها من الدعاة وخاصة على إمامها محمد بن إسماعيل . فهناك أقوال بأنها بدأت نشاطها، في مدينة الكوفة، ثم نقلت مركز الدعوة إلى مدينة الأهواز، وفيما بعد انتقل المركز إلى بلدة سلمية الواقعة في القسم الغربي من سورية، واستقر المركز فيها إلى حين. ويمكن القول إن السمة العامة لهذه

المرحلة كانت السرية، وهذا شيء طبيعي لأي حركة تحتاج فيها لفترة زمنية تبني فيها نفسها داخلياً سواء من حيث الفكر، أو من حيث إعداد الملاكات المتمكنة، والقادرة على بث الدعوة والنضال من أجلها.

حتمت تلك الظروف نشر الدعوة، في الخفاء وبعيداً عن مركز الدولة العباسية. وتحدثنا المصادر التاريخية[1] أن محمد بن إسماعيل فرّ إلى مدينة الري، ومنها إلى دماوند، في فارس حيث استقر بقرية سميت (محمد أباد) نسبة إليه، وسار أبناؤه على منواله، فاختفوا في خراسان، وفي إقليم قندهار (في أفغانستان)، وفي السند. وأخذ دعاتهم يجوبون البلاد لجذب الأشياع إليهم. ومع ذلك فكثيراً ما كانت الحركة تكسر طوق السرية في هذا القطر أو ذاك وتخرج إلى العلانية، وبالرغم من طول دور الستر فقد اتصف نشاط الحركة في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) بأمور منها:

- وجود برنامج ذي مطالب اجتماعية، مثل[2]:

١. إبطال ملكية الأرض وتوزيعها مجاناً على الفلاحين.

٢. محاربة التعصب بأنواعه كافة، والدفاع عن فكرة الإخاء الحقيقي بين جميع الناس، على اختلاف قومياتهم، وطبقاتهم، وأديانهم.

٣. المساواة بين الجنسين.

- وجود برنامج سياسي يقوم على (الجمع في رابطة واحدة بين المقهورين، والظافرين، وأن يضم جماعة واحدة سرية فيها مراتب عديدة: أحرار الفكر الذين لم يروا في الدين غير جامع للشعب ثم اغتصبته المتعصبة من كل الفرق)[3].

- وجود نظام داخلي للحركة تضمن فيما تضمن:

الهيكل التنظيمي للحركة، ويقوم على اثنتي عشرة درجة، هي : الإمام، الحجة، داعي الدعاة، داعي البلاغ، الداعي المطلق أو النقيب، الداعي المأذون،

---

[1] تاريخ الدولة الفاطمية د. حسن ابراهيم حسن ص ٤١

[2] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام بندلي جوزي ص ١٤٣

[3] مذاهب الإسلاميين - د. عبد الرحمن بدوي، ج٢، ص ١٠٣

الداعي المحصور، الجناح الأيمن، الجناح الأيسر، المكاسر، المكالب، وأخيراً المستجيب، وهذه الدرجة هي أدنى مراتب الدعوة. وكان لكل مرتبة صلاحياتها المحددة، وأصول الترقي إليها.

- بروز قادة لعبوا دوراً كبيراً في وضع الأسس الفكرية والتنظيمية للحركة، مثل[1]: عبد الله بن ميمون القداح (ت سنة ٢٦٤ هـ) والخصيبي (ت سنة ٢٧٠ هـ).

راجت الدعوة الإسماعيلية، في بلاد فارس، منذ أيام عبد الله بن ميمون القداح، وكان خلف من أشهر دعاته في هذه البلاد وقد قام بنشر الدعوة في بلاد الري، وقم، وقاشان. وكان خلف يشتغل في بدء حياته بحياكة الملابس، وحلج القطن. كما أرسل القداح، حسين الأهوازي إلى الكوفة، وابن حوشب إلى اليمن، والحلواني وأبا سفيان إلى المغرب.

اتخذ الدعاة دار (هجرة) للإسماعيلية، في كل قطر عملوا فيه. فكانت لهم دور هجرة، في نجران، وسواد الكوفة، وفي جبل لاعة باليمن، وفي بلاد تركستان وعلى الأخص، في الجزء الشرقي، وفي البنجاب، وبومباي في الهند، وفي المغرب.

اصطبغت الدعوة الإسماعيلية بالصبغة الفلسفية والعلمية، وقدمت للفكر الإنساني تراثاً ضخماً يتصف بالعمق والأصالة، أنتجته عقول مبدعة. وشمل هذا التراث مختلف أنواع العلوم والمعارف، من فقه ودين وفلسفة، وعلوم طبيعية. وحملت في أصولها المذهبية نزعة عالمية لإلغاء الفوارق الدينية والقومية.

وقد ضمت إلى صفوفها: المتنورين، والعاملين، وأهل الصناعات والحرف.

كان مؤسسو الإسماعيلية الأوائل أئمة وحجماً، يرون استخدام الدعوة لتكوين دولة تهدف إلى هدم الدولة العباسية، وبسط النفوذ على أنقاضها، وذلك بحمل السيف، وإذاعة عقائد الإسماعيلية بصراحة مطلقة. كتب الدكتور

---

[1] المرجع السابق

مصطفى غالب[1]: (فالحركة الإسماعيلية هي نظام فكري كان الغرض منه قلب النظام السياسي السائد المسيطر على العالم الإسلامي، وتحقيق هدف رئيسي انقلابي مثالي، في الأفكار والنظم والمعتقدات).

قال عبد العزيز الدوري: «إن إطلاع زعماء الإسماعيلية على كافة الديانات، والثقافات أبان لهم أن الضغط الاجتماعي، حصل في مجتمعات غير إسلامية، كما حصل في المجتمع الإسلامي، ولذلك وجهوا هجماتهم ضد جميع الأديان، ونسبوا قسماً كبيراً من مسؤولية الشقاء إلى الدين ذاته، فشجعوا الفلسفة..، وقد تأثروا بالفلسفة المزدكية»[2]

الدولة الإسماعيلية ومقاومة الغزاة:

لم يعمل الإسماعيليون على تفتيت الإمبراطورية العباسية، بل سعوا لقلبها، والحلول محلها، أما عملية التفتيت فقد بدأت منذ عهد الخليفة المأمون إذ قامت في أطرافها العديد من الدويلات.

وعندما سيطر الأتراك على مقاليد الحكم والدولة بدءاً من الخليفة المعتصم، تفاقمت المشاكل الاجتماعية، فحدثت ثورات وانتفاضات في مناطق كثيرة من الإمبراطورية وأنشئ العديد من الدويلات المنشقة عن الخلافة العباسية، أو التابعة اسماً لها.

وفي محاولة للتخلص من الظلم، وتحقيق برامجها نجحت الحركة الإسماعيلية في إقامة العديد من الدول منها : القرمطية، والفاطمية، وآلموت، وتصدوا ببسالة فائقة للغزو المغولي والصليبي.

الدولة القرمطية في البحرين [*]

(.. دوخوا الممالك والأقطار، وأذلوا أعزة أهل البدو والأمصار!..)

بتلك الصرخة استفتح المقريزي كتابه المقفى الكبير (تحقيق د. سهيل

---

[1] الثائر الحميري - الحسن بن الصباح - د. ٧مصطفى غالب- ص ١٠٦.

[2] دراسات في العصور العباسية المتأخرة – عبد العزيز الدوري – ص٢٥.

[*] في كل مكان تردفيه كلمة البحرين تعني هنا – الأحساء والقطيف، والبحرين الحالية.

زكار ص٣٩٣) معرفاً القرامطة بأنها (طائفة قد عظم في العالم أمرها وشنع بين الخليقة ذكرها، ودوخوا الممالك..).

إنها صرخة تثير سؤالاً هاماً: هل أصبح الأذلاء (القرامطة) أعزاء فأذلوا ساداتهم! مما دفع المقريزي وغيره لقول ما قالوه؟ وإذا كان الأمر كذلك – وهو كذلك – فمن هم القرامطة، وكيف كان طراز مجتمعهم الذي أقاموه في البحرين قبل أحد عشر قرناً؟

قبل الإجابة على ما سبق يكون مفيداً الإطلاع على:

القرامطة:

القرمطة تعني: دقة الكتابة، ومقاربة الخطو. وقرمط الكتاب تعني: كتبه كتابة دقيقة، وقارب بين السطور. وإن القرمطية جيل، والواحد قرمطي. وورد في (المنجد – ص٦٥٩) أن القرامطة فرقة من غلاة الشيعة. أما في نهج البلاغة، فقد ورد أن علياً بن أبي طالب (ع)، أوصى كاتبه قائلاً: (فرّج بين السطور، وقرمط بين الحروف، فإن ذلك أجدر بصباحة الخط).[1]

ونسبها بعضهم لحمدان قرمط (من أهل الكوفة) وكان أحد دعاتهم، فلما استجاب له أناس سمّوا قرامطة وقرمطية)[2]. ويقول البغدادي: (ولقب حمدان بذلك لقرمطة في خطه، أو في خطوه)[3]

يقول ابن النديم إن السبب في إطلاق كلمة (قرمط) على حمدان هو أنه كان قصير القامة.

وينقل بتروشفسكي بعد إيراده قولاً لماسينيون، في حاشية لكتابه عن إيفانوف قائلاً: إن كلمة (قرمط) مأخوذة عن كلمة (قرمثية) وتعني لسان الفلاح أو الريفي في اللهجة السريانية في المناطق السفلى لما بين النهرين، أي اللغة الآرامية نفسها.

---

[1] نهج البلاغة – ج٢ – ص٧٥.

[2] بيان مذاهب الباطنية وبطلانه – الديلمي – ص٢٦٦.

[3] أخبار القرامطة – مدخل – تحقيق د.سهيل زكار – ص٤٥.

أما بعض الباحثين المعاصرين فيرى أن (قرمطة) كلمة آرامية تعني: (العلم السرِّي)[1]. ولو أخذنا المعنى المجازي للكلمة، فربما جاءت التسمية نتيجة لاتصالهم بالعدل والمساواة، والمقاربة بين الطبقات آنذاك.

استدعى حمدان قرمط، في أوائل سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٧ م أبا سعيد الجنابي، من مدينة جنابة في فارس، بعد أن انكشف نشاطه الثوري، هناك، من قبل السلطة. ولم يكد يصل إلى مكان الاجتماع (قرب بغداد) حتى طلب إليه التوجه إلى البحرين وعلى ما يبدو فإن الظروف الذاتية والموضوعية، في تلك المنطقة كانت مهيأة لتقبل الأفكار الثورية. قال ابن حوقل: كان أبو سعيد بائعاً للطحين، اعتنق معتقدات القرامطة وآمن بها، وانضم إلى (عبدان الكاتب) زوج أخت حمدان قرمط[2].

وعندما وطئ أبو سعيد أرض البحرين، تزوج امرأة من بني سنبر وبدأ يبث أفكاره، في صفوف الجماهير الشعبية المسحوقة. يقول الصولي: «أن أبا سعيد كان معوزاً فقيراً يبيع الطحين. فجاء إلى البحرين.. فانضم إليه جميع ممن بقي من الزنج واللصوص». ولاقت دعوته رواجاً واسعاً. فبعد تسع سنوات من العمل النضالي السري، والدؤوب، أعلن قرامطة البحرين انتفاضتهم المسلحة، ولم تمض سنوات ثلاث على إعلان الثورة حتى أخذت تسقط بأيديهم مدن بلاد البحرين الواحدة تلو الأخرى، وما أن حلت سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م حتى كانت جميع بلاد البحرين عدا هجر التي سقطت عام ٢٨٧هـ قد أصبحت تحت سيطرتهم، وامتدت دولتهم إلى الطائف.

العوامل التي ساعدت على نجاح الثورة القرمطية:

وجود برنامج عمل، استقطب فئات وطبقات كانت تعمل في إنتاج الخيرات المادية: عمال زراعيون، حرفيون وصناع، وفلاحون، مثقفون وعبيد، يؤكد هذا ما قاله الطبري: "ضمت القرامطة الكثير من الأنباط والموالي، والرعاع، وجميع

---

[1] المصدر السابق

[2] هي السنة التي أرخ فيها ابن الأثير نشوء الدولة القرمطية.

من رسخ حب الكفر في قلبه، وعدداً من سكان السواد: رجالاً ونساءً وأولاد من لحقته الشقوة[1].

وهناك مثال آخر يؤكد ذلك: "فاجأ أحد قواد جيش المعتضد الخليفة العباسي، القرامطة، في أحد مراكزهم، من منطقة الكوفة سنة ٢٨٧هـ فقتل رؤساءهم، وأسر الآخرين، ولكنه اضطر إلى تسريحهم جميعاً لأنهم كانوا من الفلاحين، وإن قتلَهم، أو إبقاءهم في الأسر، يعني تعطيل الأراضي هناك من الزراعة[2].

ولم يجد الغزالي لهم وصفاً سوى[3]: «أسافل عامة، مجوس الإسلام، زنادقة»، أما عبد القاهر البغدادي، فوصفهم بأنهم حفاة العرب[4].

الاستفادة من تجارب الغير:

- اضطر البابكيون بعد قمع ثورتهم، إلى التستر، وإخفاء دعوتهم، ولم تذهب أتعابهم سدى، بل استفاد منها ومن أغلاطهم أناس كثيرون، وبخاصة الإسماعيليون.

_ استفاد القرامطة من تجربة ثورة الزنج سواء تلك التي حدثت في البحرين سنة ٢٤٩ هـ أو التي قامت في البصرة سنة ٢٥٥هـ ومن المعلوم أن أشهر قواد ثورة الزنج كانوا من البحرين، وبعد فشل تلك الثورة هرب الكثير من الجند، والتحقوا بأبي سعيد الجنابي.

- وأخيراً فإن تجربة القرامطة في البحرين، لم تكن التجربة الأولى لهم، بل سبقتها تجربة أخرى، هي تجربة أبي سعيد نفسه، في مدينة جنابة، والتي نفي على إثرها، أو استدعي من قبل حمدان كما ورد سابقاً.[5]

---

[1] الطبري - مجلد٦- ج١١- ص ٣٧٧، ٣٧٨

[2] الكامل في التاريخ لابن الأثير ج٦ ص ٩٥

[3] فضائح الباطنية للغزالي ص ١٨، ١٩

[4] الفرق بين الفرق عبد القاهر البغدادي ص

[5] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام - بندلي جوزي- ص ١١٨، ١١٩

كسب البادية: كان البدو يحصلون على أعطيات من الخلفاء العباسيين، ولكن الخليفة المعتصم وبعد اعتماده على الأتراك منع تلك الأعطيات، وقد فرض هذا الوضع عليهم أن يعيشوا كمرتزقة، أو غزاة يغيرون حتى على الجيوش العباسية. ومن أحد أسباب فشل ثورة الزنج سنة ٢٤٩ هـ كان " وقوف البدو ضدها[١].

انتبه القرامطة إلى خطورة البدو، ورأوا ضرورة كسبهم إلى جانبهم، سواء في مرحلة التحضير للثورة، أو بعد قيام الدولة، ونجحوا في ذلك، ومن القبائل التي استقطبوها: (بنو أسد، وبنو كلب...)[٢].

٤ - تميزت الفرقة القرمطية بدقة التنظيم والسرية التامة حتى أنه خفيت أسماء قادة الحركة على المقربين، واستبدل أغلب قادتها أسماءهم خوفاً من بطش العباسيين، ولكي يتمكنوا من التحرك بفاعلية أكثر بين المدن والبلدات. وتمكنت الدعوة القرمطية من خلق كادر يتصف بالصلابة الفكرية، والثقافة الواسعة، واتقان السبل والوسائل التي تجعلهم محبوبين بين الناس ولهم جماهيريتهم، أما السيماء الطبقية لأولئك الدعاة فكانت وبشكل عام الانتماء إلى الطبقة الكادحة المنتجة. فحمدان قرمط كان حسب قول كتاب الفرق بين الفرق: أكاراً: حراثاً من حراثي الكوفة. وبحسب بندلي جوزي فقد كان أبو سعيد الجنابي دقاقاً (يرقع أكياس الطحين)..

تطور الدولة القرمطية

مرت الدولة القرمطية بمراحل ثلاث هي:

آ - مرحلة البناء الداخلي :

أدركت قيادة الدولة، وعلى رأسها أبو سعيد ضرورة حماية أمن الدولة، وتوطيد أركانها داخلياً، وخارجياً وهذا يتطلب:

بناء اقتصاد قادر على تلبية احتياجات المجتمع، فعملت الدولة على إصلاح

---

[١] الزنج -فيصل السامر- ص ٨١.

[٢] بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم - ص ٨١

أراضي المزارع، والعناية بالنخيل، وإقامة الصناعات... ويتبين لنا مما كتبه المقريزي أن المجتمع القرمطي كان عبارة عن خلية كبيرة جميع أفرادها يعملون. قال المقريزي: «ويجز الصوف والشعر، ويفرقه على من يغزله، ثم يدفعه إلى من ينسجه عبياً وأكسية، وغرائر، ويفتل منه حبال، ويسلم الجلد إلى الدباغ، ثم إلى خرازي القرب، والروايا، والمزاود، وما كان يصلح نعالاً وخفاً عمل منه، ثم يجمع ذلك كله إلى خزائن»...[1]

إعداد جيش مدرب قادر على الدفاع عن الدولة، في كل الأوقات، ولتأمين احتياجات هذا الجيش، عمل أبو سعيد على جمع السلاح، ونسج الدروع، والمغافر، واتخاذ الإبل، وإصلاح الروايا، والمزاود، والقرب[2]. وإن التدريب على أعمال الفروسية، والقتال لم يكن يقتصر على الشباب، بل كان تدريب الذكور يبدأ من الصغر.

إيجاد جهاز يشرف، ويراقب كل تلك الأمور، وكان هذا الجهاز يعمل تحت إشراف أبي سعيد مباشرة. يقول المقريزي: " ونصب الأمناء، على ذلك وأقام العرفاء على الرجال، واحتاط على ذلك كله، حتى بلغ من تفقده أن الشاة إذا ذبحت يتسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسم لهم[3].

لم تكد تنته سنوات ثلاث، على قيام الدولة القرمطية، حتى بدأ خصومها بالتحرك ضدها، فأرسل المعتضد الخليفة العباسي جيشاً قوامه ألفي رجل بقيادة العباس بن عمرو الغنوي[4]، وتولى هذا الجيش البحرين، فخرج إليه أبو سعيد على رأس سبعمائة رجل، فهزم الجيش العباسي، وتم أسر ٧٠٠ رجل منهم، على رأسهم قائدهم الغنوي. وكان الناس يعظمون أمر هذا القائد ويكثرون ذكره.

---

[1] اتعاظ الحنفا- المقريزي - تحقيق د. سهيل زكار ص ٣٣٧، ٣٣٨

[2] المصدر السابق

[3] المصدر السابق

[4] الطبري - مجلد ٦- ج ١١- ص ٢٨٠، ٢٨١

كانت هذه المعركة أول مواجهة بين الدولة الجديدة والدولة العباسية.

ومن أبرز علامات هذه المرحلة، من تطور الدولة القرمطية وفاة أبي سعيد، ولم تجمع الروايات، على سبب وفاته، ولا على السنة التي حدثت فيها. فمنهم من يقول: مات أبو سعيد مسموماً، والبعض الآخر مقتولاً، على يد خادم له، أما السنة فبعضهم يقول إنها سنة ٣٠١هـ والآخر ٣٠٢هـ أو ٣٠٣[١].

ب - مرحلة الحروب الخارجية:

لم يتوقف التآمر على الدولة الجديدة، بل اتخذ هذا التآمر شكل حلف بين خصوم كثيرين ضدها. صحيح أن ذلك الحلف لم يكن مكتوباً، ولكن الممارسة العملية أكدته. شن هذا الحلف غير المعلن أكثر من ثلاثين حرباً ضد القرامطة كان النصر فيها حليف الدولة القرمطية، ليس هذا فحسب، بل كانت تستفيد من انتصاراتها، بتوسيع رقعتها، فصارت تسيطر على كل الجزيرة العربية، وتصل شمالاً إلى جوار البصرة، ومن الصعيد المصري جنوباً، إلى الشام شمالاً.

قام القرامطة سنة ٣٧٥ هـ بهجوم، على الكوفة فاحتلوها، وفي سنة ٣٨٥ هـ قاموا باحتلال مدينة البصرة، وانتهى بذلك نشاطهم العسكري.[٢].

نتائج مرحلة الحروب الخارجية:

قويت هيبة الدولة القرمطية، وزاد نفوذها وفرض القرامطة الجزية، على الخليفة العباسي، في بغداد، وعلى كافور الإخشيدي، في مصر، وأخذوا ضرائب على الحجاج، وضرائب من خراسان ودمشق، وأصبح أبو بكر ماهويه سفيراً، أو شاخويه لهم، في بغداد. وصفه أحد المؤرخين، قائلاً: ... أكابر الناس يخشونه، مجتمعين لكبره، منقادين لأمره، والسبب انتماؤه للقرامطة[٣].

---

[١] أخبار القرامطة - المقريزي - تحقيق د. سهيل زكار -ص ٣٤٠

[٢] تجارب الأمم وتعاقب الهمم- مسكويه ج٢ - ص٦٠

[٣] بندلي جوزي من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام – ص١٢٠

ج - مرحلة الانكفاء حتى السقوط:

بعد سبعين عاماً من النشاط العسكري لم يتمكن القرامطة من السيطرة على واحدة من العاصمتين: دمشق أو بغداد، فاعتكفوا، في البحرين لمدة ٨٢ سنة. هاجمتهم الجيوش السلجوقية الجرارة بقيادة (الك سالار) وحاصرت الإحساء لمدة سنة، وبعد نضال مرير سقطت هذه الدولة، وسقطت معها تجربتها العظيمة، وكان ذلك سنة ٤٦٧هـ[1].

السمات العامة للمجتمع الدولي:

لم يكتف خصوم المجتمع القرمطي، بالقضاء عليه عسكرياً، بل طمسوا أو أحرقوا مؤلفات القرامطة. «ذكر ابن النديم في (الفهرست)، أسماء الكثير من الكتب التي صنفها قادة القرامطة، ودعاتهم». بل دبجوا الكتب والمقالات التي لم تترك شتيمة، أو مسبة، أو صفة سيئة إلا وألصقوها بالقرامطة! ومع كل هذا فإنه ومن خلال تلك الأكداس من الشتائم والسباب، يمكننا العثور، على نقاط علام، نستطيع من خلالها استشفاف السمات العامة لذلك المجتمع، مثل:

أ - الأوضاع الاقتصادية:

الصناعة: تكونت من حرف، مثل: صناعة الأسلحة وحاجات المحاربين، وصناعة الفوط، والمطاحن ... وكلها كانت تتم تحت إشراف الدولة. وكان للقرامطة إزاء الصناع والحرفيين سياسة خاصة، تتمثل في:

- كانوا يحتفظون من الأسرى بـ(الحمالين والصناع)[2].

- كل غريب ينزل عندهم وله حرفة، يعطى ما يكفيه من المال، حتى يشتري ما يلزم صنعته، من عدد وأدوات، ويرد إلى الدولة ما أخذه (حين يشاء)[3] دون فائدة.

---

[1] تجارب الأمم وتعاقب الهمم- مسكويه ج٢ - ص٦٠

[2] اتعاظ الحنفا - المقريزي - ص١٨٠

[3] سفرنامة- ناصر خسرو- ترجمة يحيى خشاب ص ١٤٣

- كانت الحكومة تمتلك المطاحن لطحن الحبوب للمواطنين دون مقابل، ويدفع فيها السلطان (نفقات إصلاحها وأجور الطحانين)[1].

إن تنظيم هذه الأمور يحتاج إلى جهاز خاص يمتلك الخبرة المالية والفنية والإدارية.

الزراعة وتربية المواشي: يؤكد الذين زاروا البحرين أن الدولة القرمطية ألغت الإقطاع، ووزعت الأرض، على الفلاحين الفقراء، (وألغت الضرائب والعشور على الفلاحين)[2]. ويؤكد بعض الباحثين المعاصرين، إن الدولة القرمطية (أقامت بنكاً زراعياً)[3].

اهتمت الدولة القرمطية بالري، فأقامت شبكات المياه، ولم تدع قطرة ماء واحدة إلا واستخدمتها على نحو صحيح... «وفي المدينة عيون ما ء عظيمة، تكفي كل منها لإدارة خمس سواقٍ، ويستهلك كل هذا الماء بها، فلا يخرج منها»[4].

أنشأت الدولة المزارع، وكان يعمل فيها عمال تابعون لها، وقد قال ناصر خسرو[5]: «وكان لهم في ذلك الوقت ثلاثون ألف عبد زنجي وحبشي يعملون في الزراعة وفلاحة البساتين» وقدر ابن حوقل دخل الدولة من تلك المزارع (بثلاثين ألف دينار)[6].

يرى الدكتور الدوري إن العاملين في تلك المزارع لم يكونوا عبيداً، وكان الغرض منها توفير دخل للميزانية لتقوم بخدماتها الاجتماعية[7].

اهتمت الدولة القرمطية بتربية المواشي، وأخذت هذه المهمة، على عاتقها، وكما سبق القول فقد أقام أبو سعيد رعاة للإبل والأغنام، ومعهم قوم لحفظها.

---

[1] المصدر السابق ص ١٤٣

[2] المصدر السابق ص ١٤٣

[3] سفرنامة - ناصر خسرو- ص ١٤٢

[4] سفرنامة - ناصر خسرو- ص ١٤٢

[5] المصدر السابق ص ١٤٢

[6] المسالك والممالك - ابن حوقل- ص٢١

[7] مقدمة في التاريخ الاقتصادي - عبد العزيز الدوري.

التجارة: سيطرت الدولة القرمطية، على التجارة الخارجية سيطرة تامة. ويؤكد هذا كثير من الأمور: كان النقد المتداول داخل الدولة من الرصاص الرديء، ولم يكن يسري (خارج حدودها)[1]. أما في المعاملات الخارجية، فكان الدفع يتم بالذهب، وعن طريق الدولة فقط. ومكنها هذا النظام من عدم الوقوع في تبعية أي بلد اقتصادياً وبالتالي سياسياً. وكانت الدولة تصدر : الفوط، والقراطيس، واللؤلؤ.

لم يحدثنا التاريخ أن الدولة القرمطية قد استوردت أي شيء، عدا الحديد، من الدولة الحمدانية، في حلب، وكانت تستخدمه في صناعة الأسلحة، وذكر المؤرخون سنة ٣٥٣ كسنة لاستيراد تلك المادة.

ذكر أبو المحاسن أن القرامطة بعثوا إلى سيف الدولة الحمداني "يستهدونه حديداً، فسير إليهم كثيراً، وحمل ذلك إليهم في الفرات ثم في البرية إلى هجر.[2].

الميزانية : كانت مواردها من :

ضريبة مقدارها دينار على كل حاج، وضريبة مقدارها خمسة دنانير على كل جمل، أما إذا كان الجمل محملاً فالضريبة تصبح سبعة دنانير.[3]

ضريبة على السفن التي تبحر في الخليج العربي.

ضريبة سنوية، على الخليفة العباسي مقدارها ١٢٠ ألف دينار

ضريبة على كافور الإخشيدي، في مصر، مقدارها ٣٠٠ ألف دينار، واستمرت الدولة القرمطية بجبايتها حتى بعد وفاته سنة ٣٥٦ هـ

الدخل الذي كان يأتيها من مزارع الدولة ٣٠ ألف دينار سنوياً.

الضرائب التي فرضوها على دمشق وخراسان.

الدخل القائم من صادراتها الصناعية (فوط، قراطيس...) والتي كانت تصدر إلى البصرة، ومناطق أخرى.

---

[1] سفرنامة - ناصر خسرو- ص ١٤٥

[2] النجوم الزاهرة ص ٣٦٦

[3] المنتظم - ابن الجوزي - ج٦- ص ٢٩٦

تصدير اللؤلؤ، إذ أن حصة الدولة كانت تعادل نصف ما يستخرجه صيادوه.

الغنائم التي كانوا يغنمونها من الحروب.

النفقات:

كانت الدولة القرمطية تتحمل نفقات الأمور التالية:

بناء البيوت والمطاحن وإصلاحها.

بناء وترميم الحمامات: كانت الحمامات في عهد الدولتين الأموية والعباسية ملكية خاصة، وكان ايراد الحمام الواحد ١٠٠٠ درهم يومياً، أما عند القرامطة فكانت الحمامات مجانية ولعموم المواطنين[١].

تربية الأطفال.

توزيع القمح مجاناً.

توزيع اللحم، وربما مجاناً، فكانت إذا ذبحت الشاة يتسلم العرفاء اللحم ليفرقوه على من ترسل لهم[٢].

تتحمل الدولة نفقات الإدارة سواء كانوا من الموظفين، أو عمالاً، وعوائل الشهداء، كما تتحمل نفقات الجيش وأعفت الدولة الفلاحين من الضرائب والعشور، وكانت تمد الصناع بما يحتاجون إليه، ويوفونه دون فوائد...

أولت الدولة القرمطية عناية كبرى بالزراعة واستصلاح الأراضي، وزراعة النخيل، ويصف ناصر خسرو الإحساء قائلاً: «إنها مدينة وسواد (سواد :أراضي)، وبها قلعة يحيط بها أربعة أسوار قوية متعاقبة، من اللبن المحكم البناء بين كل اثنين منها ما يقرب من فرسخ، وفي المدينة عيون ماء... ووسط القلعة مدينة جميلة»[٣].

---

[١] لمعرفة القيمة الشرائية يكفي أن نعرف أن ثمن الكبش كان درهماً واحداً.

[٢] اتعاظ الحنفا- المقريزي - ص ١٦٤

[٣] سفرنامة - ناصر خسرو- ص ١٤٢

الحكومة القرمطية:

شكلت الحكومة القرمطية نموذجاً متقدماً، ليس في عصرها وحسب، بل وحتى للتجارب الديمقراطية المعاصرة، وتتجلى هذه التجربة في :

١ - القيادة الجماعية :

لم تنحصر السلطة طيلة وجود الدولة القرمطية، في أسرة واحدة، أو في شخص واحد، وإنما كانت في يد قيادة جماعية تتمثل بالمجلس العقداني الذي كان يتكون من ستة أعضاء دائمين، وستة مرشحين، ويصف لنا ناصر خسرو ذلك المجلس قائلاً: «ولهؤلاء الحكام الآن قصر منيف هو دار ملكهم، وبه تخت يجلسون هم الستة عليه، ويصدرون أوامرهم بالاتفاق، وكذلك يحكمون، ولهم ستة وزراء. فيجلس الملوك على تخت، والوزراء على تخت آخر يتداولون في كل أمر[1]». ونلاحظ هنا أن ناصر خسرو يصف الأعضاء الدائمين بالملوك، وطبيعي فإنه لا يعقل أن يكون في دولة ما ستة ملوك، في وقت واحد، وإن دل هذا على شيء فإنه يدل على مسؤوليات هؤلاء الستة الكبيرة، وطريقة الشورى، والتفاهم التي يعملون فيها.

وصف أبو العلاء المعري، مؤسس الدولة القرمطية أبا سعيد الجنابي، والحسن بن سنبر رئيس المجلس العقداني، قائلاً:

عكس الأنام بحكمة من ربه

فتحكم الهجري فيه وسنبر

٢ - عدم الفصل بين السلطات :

كانت جميع السلطات بيد المجلس العقداني، وكان يتحتم على الرئيس استشارة ذلك المجلس، الذي كان يضم أبرز الشخصيات، في القضايا السياسية والعسكرية والإدارية[2].

---

[1] المصدر السابق

[2] دراسات في العصور العباسية المتأخرة - عبد العزيز الدوري - ص ٢٧-٢٨

٣ - قابلية العزل:

إن شغل أي مركز، في الدولة القرمطية كان يتم عن طريق الانتخاب المباشر، وكان للجماهير المنتخبة الحق في عزل الأشخاص الذين لا يبرهنون عن جدارة وصلاحية للمراكز التي انتخبوا إليها، فمثلاً:

_ عزلت سابور عضو المجلس العقداني سنة ٣٥٤هـ، وأدانته على تآمره، ونفذت فيه حكم الإعدام سنة ٣٦١هـ / ٩٧٢م[١].

_ سحبت الثقة من القائد جعفر سنة ٣٨٧هـ[٢]. وغير ذلك قال محمد عمارة واصفاً تلك الديمقراطية التي كانت تتمتع بها الجماهير في المجتمع القرمطي: «وبلغت أنها حكمت القرى والمدن عبر مجالس منتخبة باقتراع عام[٣]».

٤ - إلغاء الألقاب:

كان الخلفاء العباسيون يتخذون ألقاباً غير أسمائهم الحقيقية، مثل المقتدر بالله، أو القائم بأمر الله، والمستنصر بالله، أما القرامطة، فقد ألغوا تلك الألقاب، واستعاضوا عنها بلقب (سيد) لكل عضو في المجلس العقداني، ومستشار للأعضاء الاحتياط؛، والطريف في الأمر أن أحد الخلفاء العباسيين اشترط فيما اشترطه لمساعدة القرامطة أن يتركوا (التسمي بالسادة)[٥].

٥ - نوعية النظام:

ناقش العديد من الباحثين طبيعة الحكم، في المجتمع القرمطي: وراثي، جمهوري، شعبي...

---

[١] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام - بندلي جوزي ص ٢١١

[٢] المصدر السابق

[٣] الإسلام والثورة - د. محمد عمارة ص

[٤] سفر نامة - ناصر خسرو- ص ١٤٣ وبدلاً من مستشار يسميهم ناصر بـ (شائرة).

[٥] أخبار القرامطة- تحقيق د. سهيل زكار- ص ١٨٨

يرى عبد العزيز الدوري أن الحكم كان وراثياً في عائلة أبي سعيد الجنابي، إلا أن هذه الوراثة مقيدة برأي (المجلس العقداني)[1].

أما بندلي جوزي فيرى أنة كان نظاماً جمهورياً، ويقول: «نحن لا ننكر أنه كان يرأس حكومة القرامطة أفراد من أسرة أبي سعيد الجنابي، أو المقربين إليها ... إلا أن هؤلاء الأفراد لم يكونوا ليمتازوا عن غيرهم، من الوزراء، أو أعضاء المجلس الإداري المعروف بالعقدانية إلا في أمور معلومة، كقيادة الجيش...» ويتابع بندلي جوزي قائلاً: فإذا صح ذلك كانت هيئة الحكم في البحرين أقرب إلى حكم الجمهورية الروسية في الوقت الحاضر أي حكومة شوروية سوفييتية[2].

لم يقتصر تولي الحكم، على أسرة أبي سعيد الجنابي، بل انتخب لرئاسة المجلس العقداني، أو تولى قيادة الجيش أشخاص من غير تلك الأسرة، مثل ثور بن ثور الكلابي الذي وصفه ابن حوقل بأنه (جيشهم لجميع الأصقاع)[3] وسليمان الجلي الذي أصبح رئيساً لمجلس العقدانية، بعد أن أمضى فترة عضواً فيه. كتب المسعودي: "بأنه لم ير مثله دراية وعلماً بما هو عليه" وكان المسعودي قد التقى به سنة ٣١٨هـ.

أوصى أبو سعيد الجنابي أصحابه، قبل موته، قائلاً: يرعى الملك ويحافظ عليه ستة من أبنائي، يحكمون الناس بالعدل والقسطاس، ولا يختلفون فيما بينهم[4]. والمقصود بالأبناء ليسوا الذين من صلبه، وإنما هم أبناؤه بالروح (حسب العقيدة الإسماعيلية).

تبين لنا من كل ما سبق أن النظام القرمطي كان نظاماً متميزاً عن جميع الأنظمة التي عاصرته، وكان ولا يزال تجربة رائدة، في تاريخنا. فأبو سعيد

---

[1] دراسات في العصور العباسية المتأخرة - عبد العزيز الدوري - ص

[2] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام - بندلي جوزي - ص ١٩٢ - ١٩٥

[3] المسالك والممالك- ابن حوقل - ص ٣

[4] سفر نامة - ناصر خسرو- ص ١٤٣

أسس الدولة سنة ٢٨٦هـ، وزارها ابن حوقل سنة ٣٦٥هـ، أما ناصر خسرو فقد زارها سنة ٤٤٣هـ، وكتاباتهما تؤكد أن ما أوصى به أبو سعيد كان محافظاً عليه، فكل الأمور كانت بيد المجلس العقداني، وكلمتهم كانت واحدة.

الوضع الاجتماعي:

تمثلت القاعدة الاجتماعية للدولة القرمطية بجماهير الكادحين، الذين وصفهم البغدادي بحفاة العرب. وقال المقريزي: «وإن أول من استجاب لأبي سعيد كان الحسن بن سنبر في قوم ضعفاء ما بين قصار وحمال... أمثال ذلك...»[1] ويقول أبو الفضل الدمشقي: إن سكان المدن الذين انضموا إلى القرامطة كانوا (أكثر الأحرار فقراً)[2]. كل ذلك دفع بندلي جوزي للمقارنة بين قوة القرامطة، وقوة روسيا السوفييتية، فرأى أن مصدر القوة عند الفريقين واحد وهو "الطبقة السفلى من الشعب، أو طبقة العمال والمزارعين، وهم الأكثرية المتغلبة عند القرامطة"[3].

التربية الجماعية :

أدرك القرامطة أهمية، وفوائد التربية الجماعية للأطفال، فكانوا يأخذونهم بدءاً من الرابعة من أعمارهم، ويقدمون لهم كل ما يحتاجون إليه، لا فرق بين أن يكون الطفل حراً، أو عبداً ... وكانوا يعلمونهم ركوب الخيل والطعان. فنشأ هؤلاء الأطفال على حب مجتمعهم، والإخلاص له، والدفاع عنه. وأصبحت تضرب ببسالتهم الأمثال:

"إذا كان القرامطة في إلف فإنهم يهزمون مائة ألف..."[4].

---

[1] أخبار القرامطة - المقريزي- تحقيق د. سهيل زكار ص ٣٣٤

[2] الإشارة في محاسن التجارة - أبو الفضل الدمشقي- ص ٤٣

[3] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام - بندلي جوزي- ص ١٩٥

[4] الكامل في التاريخ - ابن الأثير - ج٧- ص ٦٨

موقف القرامطة من الدين!

تؤكد وقائع الحياة أن تهمة الإلحاد والزندقة، هي التهمة الأساس التي توجه لأي حركةٍ، أو حزب، يناضل ضد الظلم، ودفاعاً عن المظلومين. أما بالنسبة للقرامطة، ففيما يأتي غيض من فيض، مما وجه إليهم: «القرامطة نوع من الملاحدة، يدّعون أنه لا غسل من الجنابة، وإن الخمر حلال. ويزيدون في أذانهم: وأن محمد بن الحنفية رسول الله. وإن الصوم في السنة يومان: يوم النيروز، ويوم المهرجان. وإن الحج والقبلة، إلى بيت المقدس، وأشياء أخرى، ونفق قولهم على الجهال»[1].

قرر الغزالي، والبغدادي، أن القرامطة، هم: «جماعة من المجوس، والمزدكية، وشرذمة من المثنوية الملحدين، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة.. وإن القرامطة مجمعين، مع الفلاسفة على القول: بقدم العالم لوما يخالفنا منه بعضهم من أن للعالم مدبراً، لا يعرفه»[2] ويروى عن عبد الرحمن الجوزي، قوله عن القرامطة، «أنهم يقولون: ثبت عندنا، أن جميع الأنبياء كذبوا، وتخرقوا على أممهم»[3]

جاء في كتاب (شذرات الذهب): «القرامطة قوم من الخوارج، زنادقة، مارقة من الدين..كان ابتداء أمرهم، أن رجلاً قدم إلى سواد الكوفة، فأظهر الزهد. وجعل يسف الخوص(ورق النخيل)، ويأكل من كسبه. ويصلي ويصوم، ثم صار يدعو إلى إمام من أهل بيت رسول الله، ويأخذ من كل من دخل في قوله ديناراً. فاجتمع إليه جماعة، فاتخذ منهم إثني عشرة نقيباً، وقال: أنتم كحواري عيسى»[4].

---

[1] تاريخ الخلفاء -ج١ - ص٣٦٧.

[2] فضائح الباطنية – ص١٨و١٩ والفرق بين الفرق – ص٢٧٨.

[3] أخبار القرامطة – د. زكار – ص ٢٥٥.

[4] ج١ – ص١٧١و١٧٢.

إن المصادر القديمة التي تتحدث عن القرامطة، تتمثل، في كتابات: «أسعد القمي، وابن موسى النوبختي، وأبو الحسن الأشعري – ومات هؤلاء الثلاثة في نهاية القرن الثالث، أو بداية القرن الرابع الهجريين، وقد كتبوا عن قرامطة اليمن، ودولتهم فيها، ولم يتعرضوا لعقائدهم، بالتشنيع، كما تعرض لها فيما بعد المؤرخين، وبخاصة أثناء، وبعد انتهاء الدولة الفاطمية، وقالوا أنها فرقة، نبعت من الإسماعيلية»[1].

كان اهل الإحساء يجيبون السائل، عن مذهبهم:

«إنا أبو سعيديون - نسبة إلى أبي سعيد الجنابي»[2] بعث أبو سعيد الجنابي، برسالة إلى المعتضد الخليفة العباسي، جاء فيها[3]: «إننا لم نخرج من الطاعة، ولكنا كنا قوماً مستورين. فنقم علينا فجار من الناس، لادين لهم. شنعوا علينا، وقذفونا بالكبائر، ثم خرجوا إلى سبنا وضربنا. ثم نادوا: أجلناكم ثلاثة أيام، فمن أقام بعدها أحل بنفسه العقوبة، فخرجنا. فوثبوا علينا، قبل الأجل، فسألناهم أن يؤمنوننا على أنفسنا، فلم يفعلوا. وأمر صاحب البلد بقتلنا، فهربنا، فلجأنا إلى البادية. فخرج ناس إلى المعتضد بالله، وشنعوا علينا، فصدق مقالتهم، وبعث إلينا من يخاصمنا، فدافعنا عن أنفسنا..، وأما ما أدعي علينا من ترك الصلاة، وغيرها، فلا يجوز قبول دعوى إلابينة. وإذا كان السلطان ينسبنا إلى الكفر بالله تعالى، فكيف يسألنا، أن ندخل في طاعته؟!»

لم يقتنع المعتضد برسالة أبي سعيد، وكان يذكره في مرضه، ويتلهف، ويقول: «حسرة في نفسي كنت أحب أن أبلغها، قبل موتي. والله لقد كنت وضعت عند نفسي، أن أركب ثم أخرج إلى البحرين، ثم لا أجد أحداً، أطول من سيفي إلا ضربت عنقه!»[4].

---

[1] مدخل إلى تاريخ القرامطة – د. زكار - ص٣٧.

[2] سفرنامة – ابن الجوزي – ص ١٢٢.

[3] المنتظم – ابن الجوزي – ص ١٢٢.

[4] أخبار القرامطة – د. زكار – ص٣٣٨.

هناك من قال: «رفض القرامطة الصلاة، ما داموا فقراء، لا يملكون شيئاً، مستنداً إلى أبيات الشعر الآتية، والمنسوبة إليهم[1]:

تلـوم علـى تـرك الصـلاة حلـيلتي
فقلت اغربي عن ناظري أنت طالق
فـــوالله ماصـــليت لله مفلســـاً
يصـلي لـه الشـيخ الجليـل وفـائق
أصـلي ولا فـتر مـن الأرض يحتـوي
عليـــه يمـــيني إنـــني لمنـــافق
بلـــى إ ن علـــيَ الله وسَـــع لم أزل
أصـلي لـه مـا لاح في الجـو بـارق

زار الرحالة ناصر خسرو، مدينة الإحساء سنة ١٠٥١م، وكتب: «ليس في مدينة الحسا مسجد جمعة، ولا تقام بها صلاة، أو خطبة. إلا أن رجلاً فارسياً اسمه علي بن أحمد، بنى مسجداً، وهو مسلم حاج غني، كان يتعهد الذين يبلغون الحسا.. وإن صلى أحد لا يمنع. ولكنهم أنفسهم لا يصلون. ويجيب السلاطين، من يحدثهم من الرعية، برقة، وتواضع، ولا يشربون «الخمر» مطلقاً»[2].

الحجر الأسود:

تتحدث بعض كتب التاريخ، عن هجوم قام به القرامطة، على مكة، وتروى الأخبار والتفاصيل الكثيرة، عن الأعمال التي وقعت أثناء الهجوم. سأترك للقارئ الكريم، حرية الاستنتاج، بعد استعراض أهم ما دُون منها.

---

[1] الإسلام والثورة – د. محمد عمارة – ص ١٩٨.

[2] سفرنامة – ناصر خسرو – ص ١٤٣ و١٤٤.

- اختلف المؤرخون في السنة التي هوجمت فيها مكة، فذكروا السنوات(٣٠٧هـ، ٣١٧هـ، ٣١٩هـ) ولكنهم يجمعون على احتفاظ القرامطة بالحجر الأسود مدة أثنين وعشرين عاماً[١].

- قدروا عدد المهاجمين بين ٧٠٠ -١٥٠٠ رجل[٢]

- اختلفوا في عدد القتلى بين ١٧٠٠، أو١٩٠٠، أو٣٠ ألفاً، أو٧٠ ألفاً[٣].

- استمرت أعمال القتال يوماً واحداً، أو ستة أيام، أو ثمانية[٤].

- لم يتمكن أبو طاهر من قلع ميزاب (مزراب) الكعبة، لأنه محمي بعناية (إلهية)، بينما تم قلع الحجر الأسود بسهولة![٥] وجاء في كتاب (سير أعلام النبلاء : صعد القرمطي لقلع الميزاب، فسقط فمات -ج١٥ -ص٣٢٢م)

- خلع أبو طاهر باب الكعبة، وأخذ كسوتها، وقسمها بين أصحابه[٦].

- أخذ أبو طاهر ما كان في الكعبة، من تحف ومجوهرات، مثل:(درة وزنها ١٤ مثقالاً من الذهب الخالص، وحلق مريم، وقرن إبراهيم، وعصا موسى المرصعة بالذهب الخالص، والأحجار الثمينة.. إلى غير ذلك من المنمنات النادرة، والأواني الغالية[٧].

- وضع أبو طاهر، الحجر الأسود على سبعين جملاً، فسيرهم وهم (يضرطون) من ثقله، وعند إعادته.. حمله جمل واحد، وكان مهزولاً، مريضاً، فعوفي عند مسيره، وكان يمر به مرَّ السحاب، إلى مكة[٨].

---

[١] أخبار القرامطة – تحقيق د. زكار – ٥٤. والفرق بين الفرق – عبد القاهر البغدادي – ص٢٧٥.

[٢] القرامطة – ميكال دي خويه – ص٩٥.

[٣] المصدر السابق ص٩٥.

[٤] المصدر السابق – ص٩٦.

[٥] المصدر السابق – ص٩٦.

[٦] أخبار القرامطة – تحقيق د. زكار – ص ٥٣ و٥٤.

[٧] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام – بندلي جوزي – ص١٨٥.

[٨] أخبار القرامطة – تحقيق د. زكار – ص١٠و١١.

کتابخانه تاریخ اسلام و ایران
۱۳۷۴ تاسیس

- «وقيل دخل قرمطي سكران على فرس، فصفر له، فبال عند البيت، وضرب الحجر الأسود بدبوس، هشمه، ثم اقتلعه..، ويقال هلك تحته (الحجر الأسود) إلى هجر، أربعون جملاً. فلما أعيد كان على قعود ضعيف فسمن»[1].

- نجد في كتاب البداية والنهاية، تناقضاً واضحاً. ففي الصفحة ٣١٤ من الجزء الحادي عشر، جاء: الحجر الأسود قد أخذته القرامطة، وهو في أيديهم سنة ٣١٧هـ، كما تقدم، ولم يرد إلى مكانه إلى سنة ٣٣٧هـ. وكان قد قال في ص٢٢٣، من نفس الجزء: ثم دخلت سنة ٣٣٩هـ وفيها رد الحجر الأسود المكي، إلى مكانه في البيت....، وقد ذكر غير واحد، أن القرامطة، لما أخذوه، حملوه على عدة جمال، فعطبت تحته، واعترى أسمنتها القرح. ولما ردوه حمله قعود واحد، ولم يصبه أذى». وجاء في ص ٢٠٩ من الجزء الحادي عشر: «مكث الحجر عنده(أبو طاهر الجنابي) من سنة ٣١٩هـ إلى سنة ٣٣٩هـ». وقال غيره: «ولما أخذوه (الحجر الأسود) تفسخ تحته ثلاثة جمال قوية من ثقله. وحملوه لما أعادوه على جمل واحد ضعيف، فوصل به سالماً»[2].

- استعرض أبو العلاء المعري، ما قيل عن الأسباب التي حدت بالقرامطة لأخذ الحجر الأسود، فقال: «..، فزعم من يدعي الخبرة به، أنه أخذه ليعبده، ويعظمه. لأنه بلغه أنه يد الضم، الذي جعل على خلق زحل،. وقيل جعله موطئاً، في مرتفق. وهذا تناقض في الحديث»[3].

- «.. خاف القرامطة، فأعادوا الحجر الأسود. ولما صار المسلمون إلى مسجد الكوفة الجامع، إذا به ملقى هناك، فأخذوه، ورتقوه بقضيب حديد، وحملوه إلى مكانه»[4].

- «إن رجلاً من القرامطة، قال لرجل من أهل العلم، بالكوفة، وقد رآه يتمسح به (الحجر الأسود)، وهو معلق على اسطوانة.. ما يؤمنكم أن نكون

---

[1] سير اعلام النبلاء. ج١٥ - ص ٣٢٠ و٣٢١.

[2] وفيات الأعيان – ج٢ – ص١٤٩.

[3] رسالة الغفران – ص٢٠١.

[4] سياسة نامة – نظام الملك حسين الطوسي. ج١ - ص٢٨٢.

غيبنا ذلك الحجر، وجئنا بغيره؟ فقال له: إن لنا فيه علامة، وهو أننا إذا طرحناه، في الماء لا يرسب. ثم جاء بماء، فألقوه فيه فطفا على وجه الماء»[1].

عود على بدء!

رأينا مما سبق، تناقضات ومبالغات، وعلى ما يبدو أن كثرة ترددها، جعلت منها حقائق، لا يرقى الشك إليها. ومن جهة ثانية، أبعدت الكثير من الباحثين والقراء، على عدم الإطلاع على ما كتبه مؤرخون سابقين، لهؤلاء المبالغين والمزورين للتاريخ. وحرصاً على إظهار الحقيقة، وحباً لها، لنتصفح، بعض ما ورد، في كتاب. (أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه). ولد مؤلفه محمد بن اسحق بن العباس الفاكهي، أبو عبد الله سنة ٢١٧هـ، وتوفي سنة ٢٧٥هـ .جاء فيه:

- «انصدع الركن بثلاث فرق.فرأيته متكسراً، حتى شده ابن الزبير رضي الله عنه بالفضة، وأدخل الحجر في البيت»[2].

- «قال الواقدي، حدثني محمد بن صالح.. قال: رأيت البيت كأنه حممة والحجر ملقى على الأرض.. وابن الزبير على المنبر وكان أول من ربط الركن الأسود»[3].

- إن سبب الحريق كان بفعل الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث قصف الكعبة بالمنجنيقات، ودمرها وأحرقها، وكان ذلك سنة ٦٤هـ. وقد اضطر ابن الزبير لإتمام «هدمها، ثم عمرها من جديد»[4]. ويروى عن عبد الله بن عمر بن الخطاب، أنه قال: «تهدم الكعبة مرتين، ويرفع الحجر في الثالثة»[5].

---

[1] معجم البلدان – ياقوت بن عبد الله الحموي . ج٢ – ص٢٢٤.

[2] ج١ – ص١٣٤.

[3] المصدر السابق – ص١٣٥.

[4] المصدر السابق – ص ٣٥٨.

[5] المصدر السابق – ص ٣٥٩.

- «جاء سيل عظيم في ولاية عمر بن الخطاب، فدفع المقام حتى الصقه بالكعبة». «وجاء سيل فطبق البيت، فامتنع الناس من الطواف، فوقع ابن الزبير يطوف سباحة»[1].

- «ولما اعتمر هارون الرشيد، عمرته سنة ١٨٨هـ، أرسل إلى ابن الطحان، ومولى بن المشمعل، وكانا بصيرين بالهندسة فأمرهما بعمله. وأمر بالحجارة التي بينها الحجر الأسود، فثقبت بالماس، من فوقها، وتحتها ثم أفرغ فيها الفضة. وهي الفضة التي عليه إلى اليوم» «ودرع ما يدور الحجر الأسود من الفضة ذراع وأربع أصابع. وذرع ما بين الحجر إلى الأرض ذراعان وثلثا ذراع. وحول الحجر الأسود طوق من فضة مفرغ، وهو يلي الجدر. ودخول الفضة التي حول الحجر الأسود، عن وجه حد الجدر أصبعان ونصف»[2].

- «سنة ٢٥١هـ، أخذ جعفر بن الفضل، ومحمد بن حاتم ذهب الكعبة، فضرياه دنانير، وأنفقاه على حرب اسماعيل فيما ذكروا»[3].

- «مطرت مكة سنة ٢٦٣هـ، مطراً شديداً، حتى سال الوادي. ودخل السيل من أبواب المسجد، فامتلأ المسجد، وبلغ الماء قريباً من الحجر الأسود»[4].

إن كثيراً من المسلمين، لم يعط للحجر الأسود، أية صفة قدسية، بل اعتبر تقبيله ضرباً من الوثنية، ومنهم: المتصوفة، الرازي، ابن الراوندي، الحلاج، أبو العلاء المعري، ومن شعره:

عجبت لكسرى وأشياعه

وغسل الوجوه ببول البقر

وقول اليهود إله محب رشاش الدماء وريح القتر[*].

وقول النصارى إله يضام ويظلم حقاً ولا ينتصر:

---

[1] المصدر السابق – ص ٤٥٦ وص٢٥١.

[2] المصدر السابق – ص ١٣٥ وص١٣٦.

[3] المصدر السابق – ص٤٧٦.

[4] المصدر السابق.

[*] القتر: ريح اللحم المحروق (إشارة منهم إلى أنهم يقدمون القرابين لله).

وقـــوم أتـــوا أقاصـــي الـــبلاد

لرمـــي الجمـــار ولـــثم الحجـــر

فيـــا عجبـــاً مـــن مقـــالاتهم

أيعمـــى عـــن الحـــق كـــل البشـــر

السيادة الوطنية :

سيطر القرامطة على الجزيرة العربية، وأصبحت مكة جزءاً، من تلك الدولة. وكان خصومها، يتخذون من موسمَ الحج، منبراً للهجوم على المجتمع القرمطي، ودولته. ومن الطبيعي أن لا يسمح القرامطة، باستمرار ذلك، لأنه يتعارض مع مبدأ السيادة الوطنية. ومن هذا المبدأ بالذات، فالقرامطة هم أصحاب الحق، بأخذ الرسوم والضرائب، من الحجيج، بدلاً من الخلافة العباسية، وهي غير قادرة على حمايتهم.

وهناك رأي أخر يفسر الهجوم بأنه «محاولة لإشغال الخليفة العباسي، وجيشه عن أحداث أفريقيا، حيث بدئ بتأسيس دولة الإسماعيلين الفاطمية»[1].

بعث أبو طاهر برسالة إلى الخليفة العباسي، جاء فيها[2]: «من أبي طاهر، الداعي لتقوى الله. القائم بأمر الله. الآخذ بآثار رسول الله . إلى قائد الأرجاس المسمى ولد العباس.. فكتبت لي بما أجمعت عليه أذهان كتابك: ذكرتني بالعيوب الشنيعة. فأما ما ذكرت من قتل الحجيج، وإخراب الأمصار، وإحراق المساجد . فو الله ما فعلت ذلك إلا بوضوح الحجة.. وإدعاء طوائف منهم أنهم أبرار، ومعاينتي منهم أخلاق الفجار...

خبرني أيها المحتج لهم، والمناظر عنهم. في أي آية من كتاب الله، أو أي خبر عن رسول الله: إباحة شرب الخمور، وضرب الطنبور، وعزف القيان، ومعانقة الغلمان. وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام، واحتووها من وجوه الحرام.

---

[1] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام – بندلي جوزي – ص ١٧٣.

[2] أخبار القرامطة – كشف أسرار الباطنية – تحقيق د. زكار ص ٣٢٦ وما بعدها.

وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار، فأي مساجد أحق بالخراب، من مساجد إذا توسطتها، سمعت فيها الكذب على الله تعالى، وعلى رسوله، بأسانيد من مشايخ فجرة، ربما اجتمعوا عليه من الضلالة.

وأما ما ذكرت أني تسميت بسمه عدوان، فليس أعظم من تسميتك بالمقتدر بالله أمير المؤمنين. أي جيش صدمك، فاقتدرت عليه، أم أي عدو ساقك، فابتدرت إليه؟ لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين!».

وأخيراً كتب د. مصطفى غالب :«إن القرامطة اسماعيليون بكل ما في الكلمة من معنى، آمنوا بالعقيدة الإسماعيلية طريقاً للخلاص إلى مجتمع مثالي صحيح عن طريق الثورة الجذرية العارمة، غير أن أحداثاً عديدة متشابكة تجمعت كلها فأحدثت صدعاً في بنيان القرامطة، وساقتهم إلى التمسك بمواقف تتغاير مع السياسة العليا التي اعتمدها الخلفاء الفاطميون...، حتى ناصبوا أئمتهم العداء... ومن ثم تكشفت له سبل الهداية ... فانتظموا في سلك الدعوة الإسماعيلية من جديد، واستمروا في نشاطهم وولائهم للأئمة حتى زوال دولتهم»[1].

الدولة الفاطمية

مقدمة

تم الفتح العربي للمغرب على مراحل، وأسس العرب مدينة القيروان سنة ٦٧٠ ميلادية في تونس.

اشتد عمال الخلفاء الأمويين والعباسيين في جمع الخراج والضرائب. وعندما سحق جيش المأمون الثورة القبطية سنة ٨٣١ – ٨٣٢م، أصبحت قرى بأكملها مهجورة بعد ذبح أهلها، وأعطيت تلك القرى بأراضيها للقسيسين. وفي عام ٨٦٨ -٨٧٠م قامت انتفاضة كبيرة يقودها ابن الصوفي العلوي الذي كان له مساعدان أحدهما مسيحي والآخر مسلم.

---

[1] أعلام الإسماعيلية د. مصطفى غالب - ص ٦١.

وفي العصر العباسي اشتدت ظاهرة تكوين الصوافي[*] (في شمال إفريقية) المملوكة للولاة العرب، والعمال، وكبار القواد، فضلا عن أبناء البيت العباسي! وابتدع الولاة أمراً لم نسمع عن مثيله في الفتح العربي للبلدان الأخرى، وهو أن يسدد البربر الجزية عبيداً من أطفالهم ونسائهم[1].

استغل مختلف الحكام سيطرتهم القانونية والفعلية على المؤسسات الدينية ورجالها لكي يحيطوا مصالحهم بسياج من القدسية، ويبرروا تصرفاتهم أمام العامة تبريراً يرمي بالزندقة والارتداد من يتأفف أو يناقش.

الحركة الإسماعيلية في المغرب

انتشر في الشمال الإفريقي كثير من حركات المعارضة، في مقدمتها الخوارج، والشيعة، والإسماعيلية. فبعد وفاة الحلواني وأبي سفيان داعيي الإسماعيلية، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي نشر الدعوة في المغرب، وكان ذلك سنة ٢٧٠هـ /٨٨٣م. ولما دخل أبو عبد الله بلاد المغرب، اتخذ دار هجرة في (فج الأخيار) في إيكاجان الواقع في بلاد كتامة، وكانت تحت حكم دولة الأغالبة. ورغم الازدهار الاقتصادي، تكونت ضد الحكم الأغلبي أرضية من السخط العام هيأت المناخ لقيام حكم الشيعة الإسماعيلية. واستطاعت بطون بني كتامة من قبائل (صنهاجة) أن تتولى قيادة المعارضة رغم أن الخليفة العباسي (المكتفي بالله)، استعمل كل الوسائل لمحاربة الدعاة الإسماعيليين.

كانت كتامة تعادي كبار أصحاب الأراضي، والتجار، والأمراء العرب في شمالي تونس، وتعادي حكم الأغالبة بجنوده المرتزقة الأجانب. وفي سنة ٢٩١هـ / ٩٠٣م، بدأت أعمال أبي عبد الله الحربية، وحقق انتصارات جعلت من الإسماعليين أصحاب السلطان المطلق، في جميع الجهات الواقعة إلى الغرب من مدينة القيروان. وقد أراد أبو العباس شقيق أبي عبد الله أن ينشر المذهب

---

[*] الصوافي: الأراضي التي استصفاها عمر بن الخطاب من أملاك الفرس والبيزنطيين، ثم انتقلت إلى الأمويين الذين وسعوها بطرق مختلفة، وصارت إلى الأسرة العباسية، فيما بعد.

[1] تاريخ مصر الاجتماعي – الاقتصادي – أحمد صادق ص ٢٣٩.

الإسماعيلي بين الناس، عن طريق العنف والإكراه فمنعه من ذلك. ولما وصل أبو العباس مدينة القيروان أراد أن ينفي عنها من يخالف مذهبه، فقال له أبو عبد الله : إن دولتنا دولة حجة وبيان، وليست دولة قهر واستطالة، فاترك الناس على مذاهبهم.

عبيد الله المهدي

إنه عبيد الله بن الحسين (محمد المهدي) ولد في سلمية سنة ٢٨٠ هجرية، وقيل في الكوفة سنة ٢٥٩ هـ أو ٢٦٠هـ.

رأت قيادة الحركة أن الظروف مهيأة لحضور المهدي وتسلم زمام الأمور، فتوجه عبيد الله من المشرق سنة ٢٨٩هـ/٩٠٢م. وكانت عين الخليفة العباسي في بغداد تراقب ما يجري بانتباه شديد، فأرسل في طلب المهدي، واستطاع الأخير الإفلات من والي مصر، ولكنهم قبضوا عليه في سجلماسة وسجن فيها. وعندما وصلت أخبار القبض عليه إلى رقادة، حيث يقيم أبو عبد الله سار في جيوش عظيمة اهتز لها المغرب بأسره، يريد سجلماسة. وبعد يوم من القتال دخل أبو عبد الله المدينة وأخرج المهدي ومن معه من السجن، وكان ذلك إيذاناً بزوال سلطان بني رستم في تاهرت، والأغالبة في تونس ودعي له بالخلافة يوم الجمعة من شهر ربيع الآخر سنة ٢٩٧هـ وذكر اسمه ذلك اليوم، في الخطبة على منابر المساجد، وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين. وقامت الدولة الفاطمية كأول دولة إسماعيلية في شمال إفريقية، الذي خرج من سلطان بني العباس. وملك المهدي جميع ذلك[1]. كما زالت دولة الأدارسة بالمغرب بعد أن تربعت على العرش قرابة القرنين.

الاستيلاء على مصر

جمعت الدعوة الإسماعيلية، بين عناصر فكرية مختلفة، جمعا طابق إلى حد كبير لا التراث المصري العام فقط، بل الظروف الاجتماعية الخاصة التي كانت تمر بها مصر في بداية القرن العاشر الميلادي. فمن جهة وجهت دعوتها - مركزة - إلى طوائف الحرفيين والتجار المصريين المسحوقين تحت الحكم

---

[1] الكامل في التاريخ _ ابن الأثير _ ج٨_ ص٢ ٢٨.

التركي - العباسي، أو التركي المستقل، مطالبة بالعدل والمساواة، ومن جهة أخرى علا صوت دعاتها مطالباً بحق المفكرين في تأويل النصوص واستنباط المعاني منها. فنجحت في الاستيلاء على مصر، وزال سلطان الإخشيديين والعباسيين عنها، وأصبحت مصر إحدى ولايات الدولة الفاطمية التي تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً.

نقل المعز خلافته من المنصورية إلى القاهرة، التي أصبحت حاضرة للدولة الفتية ونافست بغداد حاضرة الدولة العباسية. وكان لتلك المنافسة (أبعد الأثر في الحضارة الإسلامية)[1].

اتسعت رقعة الدولة الفاطمية حتى شملت بلاد المغرب، ومصر والشام، وفلسطين، وبلاد الحجاز واليمن. وكان بعض هذه البلاد يدين بالتبعية المطلقة للخلفاء الفاطميين الذين كانوا يولون العمال عليهم، ويجبون الخراج. طبعاً لم تكن الحالة في بلاد الشام وفلسطين مستقرة، بمعنى أن أمرها لم يستقم للفاطميين طوال عهدهم، إذ كانت تقع تحت سيطرة القرامطة أحياناً، ودخل بعضها في طاعة الحمدانيين، أو طاعة السلاجقة حين استولى أتسز على دمشق سنة ٤٧٢ هـ/١٠٧٩م، إضافة للنزاعات التي حدثت بين الفاطميين والصليبين.

الوضع الاقتصادي – الاجتماعي

حققت الدولة الفاطمية، الكثير من المنجزات الاقتصادية – الاجتماعية. وفيما يأتي غيض من فيض، منها:

التسامح الديني

عامل الفاطميون الناس من غير المسلمين معاملة تنطوي على العطف والرعاية. ولقد أُعطي أهل الكتاب أرقى المناصب وأعلاها في عهد الخليفة العزيز (٣٦٥ -٣٨٦هـ) (٩٧٥ - ٩٩٦م) ورفع هذا الخليفة عيسى بن نسطورس إلى كرسي الوزارة. كما عين منشا والياً على الشام، ويعقوب بن كلس الوزير الأول، وهما يهوديان. وصار بهرام الأرمني وزيراً على القاهرة، في عهد الخليفة

---

[1] تاريخ الدولة الفاطمية - د. حسن إبراهيم حسن - ص ١٤٧.

الحافظ، وقد كثر الأرمن فيها. وعاقب الخليفة المستنصر (٤٢٧ -٤٦٧هـ) قائده بالقتل لقيامه باضطهاد المسيحيين.

دور العلم

شجعت الدولة الفاطمية العلوم والفنون، ونشرت على الربوع لواء الأمن والسلام والرخاء. وخلفت آثاراً جليلة في الأدب والفن والعلم. وخاضت نزاعاً سياسياً مع الأمويين في المغرب، والعباسيين في المشرق. عمد الخلفاء الفاطميون إلى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الإسماعيلي. وانتشرت إشعاعاته في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، كمصر واليمن، وفارس، والهند. بل توغلت هذه التعاليم، في بلاد الأندلس. وأنجبت هذه المدارس الكثير من الدعاة الأفذاذ، مثل جعفر بن منصور اليمن، وأبي حاتم الرازي، وغيرهما.

وما كاد جوهر يضع أساس القاهرة حتى شرع في بناء الجامع الأزهر في ٢٤ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هجرية، وأقيمت الصلاة فيه أول مرة في اليوم السابع من رمضان سنة ٣٦١ هجرية. وكانت تعقد فيه حلقات الدرس. كما كانت دار الوزير يعقوب بن كلس مجلساً يحضره الفقهاء. كذلك كان شأن جامع عمرو بمدينة الفسطاط، مركز الحركة التجارية والعلمية في ذلك العصر.

أنشئت دار الحكمة في القاهرة عام ١٠٠٥م في عهد الخليفة الحاكم. وكان يشتغل بها كثير من القراء والفقهاء والمنجمين والنحاة واللغويين، وألحق بها مكتبة أطلق عليها(دار العلم)، حوت كثيراً من الكتب المدونة في مصر أو غيرها من البلاد الإسلامية، وكان بها غرف لعقد الاجتماعات. تضمن المنهاج المتبع فيها عدا العلوم الإسلامية، الفلك والطب. وبالرغم من أن الملك الأفضل أغلق أبواب هذه الدار عام ١١١٩م إلا أنها بقيت تعمل حتى بعد أن سيطر الأيوبيون، على مصر..

لم تقتصر مجالس العلم أو حلقات الدرس على القاهرة وحدها، وإنما ظفرت بها مدن أخرى مثل الإسكندرية.

دخل أحد السياح دار الحكمة في أوج ازدهارها، فشاهد فيها قطعاً من الحرير الأزرق غريب الصنعة فيها صورة أقاليم الأرض، وجبالها، ومدنها، وأنهارها، وطرقها، وجميع الأماكن المقدسة، ومكتوب على كل مدينة، وجبل وبلد ونهر وبحر، وطريق، اسمه أو اسمها بالذهب. كان التعليم في دار الحكمة على نفقة الدولة. ويقدم للطلاب والباحثين كل ما يحتاجون إليه من أقلام وأوراق وأدوات كتابة مجاناً. وكان للنساء فيها مجالس خاصة، كما فتحت أبوابها لسائر الناس.

وذكر المقريزي : احتوت مكتبات القاهرة (زمن الفاطميين) على مليون وستمائة ألف مجلد.

الفلك وعلم البصريات

اهتم الفاطميون بالفلك، وكان للخليفة الحاكم شغف خاص به، فبنى مرصداً في جبل المقطم. وازدان بلاطه بعلي بن يونس (ت ١٠٠٩م) وهو ألمع من أنجبتهم مصر من الفلكيين، وبأبي على الحسن بن الهيثم (٩٦٥_١٠٣٩م) كبير علماء الطبيعيات المسلمين والأخصائي في علم البصريات.

المكتبة الملكية

احتوت هذه المكتبة على مائتي ألف مجلد. وكان من نفائسها ألفان وأربعمائة مصحف مزخرف، ومن تحفها النادرة مخطوطات من خط ابن مقلة، وسواه من كبار الخطاطين، وكان للخليفة العزيز فيها نسخة من تاريخ الطبري مكتوبة بيد المؤلف. ولما نهبت خزائنها سنة ١٠٦٨م روى شاهد عيان أنه رأى خمسة وعشرين جملاً موقرة (محملة) كتباً. واستعملت المخطوطات الثمينة وقوداً للنار في منازل الضباط، واستخدمت جلودها لتصليح أحذية عبيدهم. وعند استيلاء صلاح الدين على القصر ودخوله إلى خزانة الكتب، كان لا يزال فيها أكثر من مائة ألف مجلد، وزع بعضها مع نفائس أخرى في رجاله[1].

---

[1] المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار - المقريزي - مصر ١٢٧٠هـ - ص ٤٠٩.

رغب الخلفاء الفاطميون في جعل الجامع الأزهر من الأهمية وعظم الشأن بحيث يجتذب طلاب العلم من أرجاء البلاد الإسلامية كافة، ولتشجيع الطلاب وطنيين أو أجانب، كان يقدم لهم المأكل والمسكن، وكل ما يوفر لهم وسائل المعيشة، وأسباب الراحة من غير أجر، وكانت العلوم والآداب تدرس فيه. وأصبحت مساجد عمرو، وابن طولون، والحاكم، مراكز ثقافية هامة.

موجز القول: شهدت فترة الحكم الفاطمي التي دامت ثلاثمائة عام تقريباً أعظم ثورة علمية - فلسفية، في تاريخ العرب والمسلمين. إنها مرحلة ظهور النوابغ والحكماء، وبناء المدن والمكتبات والمساجد. فانبثقت شمس ابن سينا الفيلسوف والطبيب الإسماعيلي، كما سطعت فلسفة الفارابي، وابن رشد وابن الهيثم...

الخليفة المخترع

شهد تاريخنا ظهور الكثير من النوابغ والمبدعين الذين أغنوا العالم يومذاك بالعلم والمعرفة، وساهموا في تشكيل أرضية خصبة لنمو الحضارة الحديثة.

كان المعز لدين الله الخليفة الفاطمي الرابع، أحد هؤلاء العباقرة، ويؤكد ذلك معاصروه، وبخاصة النعمان قاضي قضاة الدولة الفاطمية إذ كان قريباً من قمتها، وأثيراً عند المعز فقد عاشره ولي عهد، ثم خليفة، ومات قبله بسنتين وكان النعمان قد ألف كتاب (المجالس والمسايرات) جعله سجلاً يومياً لأقوال الخليفة، ومآثره، وتوقيعاته. ووصفه ابن خلكان بأنه كان (عاقلاً، حازماً، سرياً، أديباً، حسن النظر في النجابة.)[1]. أتقن المعز اللغات الآتية: اللاتينية، والبربرية، والسودانية، والصقلبية.

كتب القاضي النعمان[2]: (وجدنا الخليفة المعز قد نظر في كل فن، وبرع في كل علم، فهو عارف بالعلوم الرياضية، والطب، والهندسة، وعلم النجوم،

---

[1] وفيات الأعيان - ابن خلكان - ج٢ - ص ١٥٣.

[2] المجالس والمسايرات - القاضي النعمان - ص ١٤٨.

والفلسفة وله باع طويل في المباحث اللغوية، وهو صاحب اختراعات عجيبة لم يسبق إليها وله معرفة بتركيب الأدوية).

١ - بناء قناة لجر الماء

كانت مدينة صبرة المنصورية (بالقرب من القيروان في تونس) عاصمة الدولة الفاطمية، فقرر الخليفة القائم (جد المعز) شق قناة من بحر المياه عين أيوب إليها، إلا أنه ونتيجة لأحداث داخلية، توقف العمل فيها. وهمَّ خلفه المنصور بذلك، فهوّل عليه ولم يكمل العمل.

عزم المعز على إكماله، فقاس المسافة بين النقطة التي توقف القائم عندها، وبين المنصورية فوجدها ثلاثة وسبعين ألف ذراع (ذراع العمل المصرية تساوي ٦٦,٥ سم)[1]، فقال المعز : (قد هول مثل هذا التهويل على القائم، وقيل له: والله لو جعلت في ساقية من زجاج ما جرت) وقيل للمنصور : يحتاج أن ينفق فوق مائة ألف دينار، ثم الله أعلم هل يصح جريها أو لا ؟ وكان ذلك سبب تركها).

أقسم المعز ألا يتركها، ولو أنفق فيها أضعاف ما قيل، وأكد أنه لو كان بإمكان الزجاجين صنعها من الزجاج لأمر بصنعها، ليعلم من يهول ذلك أنه لا يهوله، ولا يستعظمه، وقال: (ما تهيأ لمن تقدم من حلول الأرض، من مثل هذه الأعمال، إلا بالعزم عليها، والحزم فيها، فليت شعري كيف جاز عندهم لمن تقدم، ولا يجوز لمن تأخر؟ اللهم أن يصح في عقولهم الفاسدة، أنهم كانوا في القوة وعظم الأجسام، في خلاف ما عليه اليوم الأنام، كما زعموا أن المرأة كانت تأتي بأعظم صخرة، يرونها تحملها على رأسها ومغزلها في يدها، فإن كان بمثل هذا المحال تصوب هذا عندهم، فنعم!) وأمر بأن تبنى القناة بالجير، وتأخذ في أسناد (جمع سند ما قابلك من الجبل وعلا من السفح) جبال وتمر على أودية وأوطئة يحتاج فيها إلى آزاج (عقود تحمل القناة، مفردها أزج) يجري الماء من فوقها، ونفذ المشروع ووصلت المياه إلى المنصورية. وبلغ طولها ٤٨,٥٤٥ كيلو متر.

---

[1] المكاييل والأوزان وما يعادلها في النظام المتري _ فالتر هانس_ ترجمة د. كامل العسلي.

٢ - قلم الحبر (ستيلو):

يسود اعتقاد مفاده أن قلم الحبر هو من صنع أوربي، وللحقيقة فإن أول قلم يخزن الحبر كان من اختراع الخليفة المعز، وقد سبق لويس وفيشر الأوربيين بثمانية قرون (صنع قلم لويس سنة ١٨٠٩م، وقلم فيشر سنة ١٨١٩م).

روى القاضي النعمان: أن الخليفة المعز قال[١]: (نريد أن نعمل قلماً يكتب به بلا استمداد من دواة، يكون مداده من داخله، فمتى شاء الإنسان كتب به، فأمده، وكتب بذلك ما شاء، وما شاء تركه، فارتفع المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عندما يبتغي منه، ويراد الكتابة به، فيكون آلة عجيبة لم نعلم أنّا سُبقْنا إليها!)

فقلت : ويكون ذلك يا مولانا؟

قال : يكون إن شاء الله.

فما مرّ بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى جاء الصانع الذي وصف له الصنعة به، معمولاً من الذهب، فأودعه المداد، وكتب به، وزاد شيئاً من المداد على قدر الحاجة. فأمر بإصلاح شيء منه فأصلحه. وجاء به فإذا هو قلم يقلب في اليد، ويميل إلى كل ناحية، فلا يبدو منه شيء من المداد. فإذا أخذه الكاتب، وكتب به، كتب أحسن ما شاء أن يكتب به، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد.

تحديد الأسعار

كانت الشوارع الرئيسية في القاهرة مسقوفة ومضاءة بالقناديل. ولأصحاب الحوانيت أسعار محددة للبيع، فإذا بدر من أحدهم غش في معاملته أركب على جمل، وطيف به في أسواق المدينة، مع ضرب الأجراس، وأجبر على المناداة بذنبه. وبسبب سيادة الأمن كان الصاغة والصرافون يتركون حوانيتهم مفتوحة ليلاً. ووصل الأمر بالخليفة الحاكم بأمر الله انه كان يطوف في الأسواق ويقيم الحسبة بنفسه.

---

[١] المجالس والمسايرات - القاضي النعمان.

الطب في الدولة الفاطمية

اهتم الفاطميون بالطب، وأغدقوا، على الأطباء الأموال، وأجزلوا لهم المنح، وقلدوهم المناصب العالية، وأصبحت لهم منزلة رفيعة بين رجال البلاط، مما ساعد على تقدم الطب الذي أصبح يدرس نظرياً، وعملياً، في المارستانات التي كانت أشبه بكليات الطب. وكان من مستلزمات الطبيب أن يكون ملماً بعلوم الفلسفة، وبعض اللغات وبخاصة السريانية واليونانية. وبرز عدد من كبار الأطباء، كأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي، وقد نشأ في بيت المقدس، حيث درس الطب على راهب يقال له أنبا زخريا بن ثوابة، وعلى أحمد بن أبي يعقوب، ثم تنقل في كثير من المدن، في طلب هذا العلم، كما أتقن طريقة تركيب الأدوية. صحب يعقوب بن كلس، وصنف له كتاباً في عدة مجلدات سماه (مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء) ثم اتصل بالأطباء الذين وفدوا على مصر مع الخليفة المعز لدين الله الفاطمي. ومن مؤلفاته أيضاً كتاب (مخلص النفوس) الذي قال فيه: (هذا ترياق ألفته بالقدس وأحكمت تركيبه، مختصر نافع الفعل لضرر السمومات القاتلة المشروبة والمصبوبة في الأبدان بلسع ذوات السم من الأفاعي والثعابين وأنواع الحيات المهلكة السم والعقارب، وغيرها، وذوات الأربع والأربعين رجلاً، ومن لدغ الرتيلات(*) والعظيات(*)، مجرب ليس له مثيل) ثم ساق مفرداته وصورة تركيبه في كتابه المسمى (مادة البقاء).

ومن أطباء الخليفة المعز، موسى بن العازار الإسرائيلي الذي حذق في صناعة الطب.

ولم يفت ابن كلس أن يجعل في قصره مشفى فيه عدد كاف من الأطباء يقومون بفحص المرضى، ووصف ما يلزمهم من الأدوية التي كانت تعطى إليهم دون ثمن.

---

* الرتيلاء أو الرتيلى أنواع من الهوام، وكالذباب الذي يطير حول السراج ولسعها مورم ومؤلم.

* جمع عظاية (بفتح العين والظاء والياء) دويبة سامة وجمعها عظاء وعظايات.

الصناعة

ساعد الاستقرار السياسي على تقدم الصناعة، إضافة إلى وجود طبقة ثرية من المستهلكين، تشكل سوقاً رائجة لمختلف المنتجات، إلى جانب احتياجات الجيش والأسطول الفاطميين. كما أن النشاط التجاري الواسع البادئ من مصر، أو العابر بها أوجد أسواقاً خارجية هامة للإنتاج الحرفي المصري، واستقدم الفاطميون، الصناع الماهرين، وأغروهم بالرواتب المرتفعة. وكان النسيج أهم فرع صناعي ازدهر في العصر الفاطمي. ونُسجت أقمشة من الحرير الخالص.

أصبح الكثير من مدن مصر مراكز فنية وصناعية لمنتجات الزجاج والمعادن والعاج. وكان لإنتاج النبيذ والخمر أهمية خاصة، وانتشرت صناعة الورق. وكانت مركزاً كبيراً لصناعة السفن التجارية والحربية، كما كانت القاهرة مركزاً لصناعة الأسلحة الجيدة.

النسيج

اشتهرت مصر بصناعة الكتان الذي كثرت زراعته في الفيوم، ومن أشهر مراكز هذه الصناعة في القرن الرابع الهجري إقليم الفيوم، ونواحي بحيرة تنيس، وخاصة مدن دمياط وشطا، ودبيق التي ينسب غليها الثياب الدبقية، وتنيس التي كانت تصدر إلى العراق وحدها، ما تتراوح قيمته بين ٢٠٠٠٠إلى ٣٠٠٠٠ دينار سنوياً. وفي دبيق كانت تصنع الثياب المثقلة والعمائم (وقد بلغ طول كل عمامة منها مائة ذراع، وفيها رقمات منسوجة بالذهب، فتبلغ قيمة العمامة من الذهب خمسمائة دينار سوى الحرير والغزل)[1]

وكانت القاهرة من أهم المراكز الصناعية، وازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية. وتبين لنا مهارة المصريين وخدمتهم، من وصف الكسوة التي أمر الخليفة المعز بعملها للكعبة. وكانت مربعة الشكل، مصنوعة من ديباج أحمر، سعتها مائة وأربعون شبراً. وفي حافاتها اثنا عشر هلالاً ذهبية،

---

[1] المقريزي - خطط - ج١ - ص ٢٦٦.

بداخل كل منها خمسون درة تشبه بيض الحمام في الكبر. وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق، ونقشت في حافاتها الآيات التي وردت في سورة الحج بحروف الزمرد الأخضر، وزينت الكتابة بالجواهر الثمينة وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك، (ووضعت في القصر بحيث يراها الناس من داخله وخارجه)[1]

وقد بنى الخليفة المعز دار الكسوة حيث كانت تفصل الثياب لموظفي الدولة على اختلاف مراتبهم، وعني الخلفاء من بعده بصناعة النسيج، وكانوا يصنعون مقادير وافرة منها لهم ولرجال بلاطهم، والخلع التي يمنحونها بسعة للوزراء والأمراء والأشراف في عيد الفطر، (حتى سمي هذا العيد بعيد الحلل)[2].

وهناك أنواع خاصة اشتهرت، منها الثياب العتابية والخسرواني وهي مصنوعة من الحرير، والقلموني، نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس.

ذكر المقريزي[3] أن الخليفة المعز أمر في سنة ٣٥٣هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق التستري والقرقوبي المنسوج بالذهب كان مبيناً عليها كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار وطرق ومدن، كما ظهر عليها مدينتا مكة والمدينة.

وتقف صناعة السجاد في موازاة صنعة النسيج. وقد أشار المقريزي إلى شهرة مدينة أسيوط في إنتاج السجاد الذي يشبه السجاجيد الأرمنية.

الصناعات الخشبية

اهتم الفاطميون بالخشب وصنعوا منه أشياء كثيرة مثل:

١ - بناء السفن: نقل الوزير البطائحي سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م، عمارة المراكب البحرية إلى ساحل الفسطاط. وأنشأ الخليفة المعز داراً لصناعة السفن بنى فيها

---

[1] الدولة الفاطمية _ د. حسن ابراهيم حسن _ ص ٥٨٣.

[2] المرجع السابق - ص ٥٨٤.

[3] المقريزي - خطط - ج١ - ص ٤١٧.

ستمائة مركب، وصفها المسبحي المؤرخ المصري فقال: (إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً ووثاقة، وحسناً) كما اشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية، وبنيت أيضاً دار لصناعة المراكب النيلية والشواني)[1] وبنوا دوراً لصناعة السفن في الإسكندرية ودمياط.

ضمَّ الأسطول الفاطمي عدداً كبيراً من السفن المتنوعة مثل:

الشواني: (أهم القطع) وهي سفينة حربية كبيرة تتخذ لها الأبراج العظيمة والقلاع،وتزود بالعدد والآلات الحربية، وتجهز بالأسلحة النفطية لتستعمل في حالة الهجوم والدفاع.

- الحراريق (الحراقات): مراكب تجهز بالأسلحة النارية كالنار الإغريقية وأنابيب النفط.

- الطرادات : سفن صغيرة الحجم، سريعة السير تستخدم في حمل الخيول، تحمل نحو ٨٠ فرساً.

- الأغربة: نوع من الشواني رأسها كرأس الغراب لذلك سميت بالأغربة.

- القراقير: سفن ضخمة تستعمل في تموين الأسطول بالزاد والمتاع وأنواع السلاح، ومن أنواعها أيضاً الفلانك والقوارب والحمالات.

- العشاريات: مراكب نهرية تجوب النيل، وتستعمل في البحر مع الأسطول.

- الشلنديات: وهي سفن مسطحة تحمل السلاح والمقاتلة، وعددها عشر مسطحات.

كان على رأس الأسطول عشرة قادة عليهم رئيس هو (قائد القواد)، ويسمى في عصر الفاطميين (أمير الجيوش). وكان التخاطب بين قطع الأسطول بعضها مع بعض بالرايات والإشارات.

---

[1] المرجع السابق - ص ١٩٧.

٢ - الحفر على الخشب:

ازدهرت هذه الصناعة حتى بلغت الغاية، في العصر الذهبي للدولة الفاطمية، ويرجع الفضل في ذلك إلى القبط الذين مهروا في صناعة النجارة والحفر على الخشب. وكان الصناع يستعملون الأخشاب المحلية، إلا أنها لم تكن تمتاز بالمتانة والصلابة الكافيتين، فاضطر الفاطميون، إلى استيرادها من كرواتيا وغيرها. وجلبوا خشب الأرز والصنوبر، من غابات الشام، وآسيا الصغرى، والأبنوس من السودان، وخشب التلك من الهند، وشبه جزيرة الملايو. وصنعوا تحفاً امتازت بدقة الصنعة وجمال الزخرفة.

ومن أهم التحف الخشبية منبر الحرم الإبراهيمي، في مدينة الخليل بفلسطين، (وقد نقشت على بابه، وعلى جانبيه كتابة تاريخية بخط كوفي جميل، وتستلفت زخارف هذا المنبر النظر بدقة الفروع النباتية التي نقشت في أشكال هندسية)[1]. وتضم دار الآثار العربية، كثيراً من قطع الأبواب، والحشوات، والألواح والمحاريب.

٣ - الورق والتجليد :

كان ورق البردي الذي اشتهر بمصر منذ عهد بعيد، كثير الاستعمال حتى أوائل العصر العباسي الثاني، ثم حل محله الكاغد، وانتشرت صناعته، في دمشق وطبرية، وطرابلس الشام، كما انتقلت صناعته إلى مصر.

ومن أشهر مراكز صناعة الورق بمصر، في العصر الفاطمي مدينة الفسطاط التي اشتهرت بنوع من الورق أطلق عليه (الورق المنصوري)[2]. ولم يكن الورق يباع بسعر واحد، بل كانت أسعاره تختلف بحسب جودته، فالورق الأبيض الصقيل الذي يصنع، في الصيف أغلى ثمناً من الورق الأسمر الذي

---

[1] الدولة الفاطمية - د. حسن ابراهيم حسن - ص ٥٨٩.

[2] المقريزي _ خطط _ ج١ _ ص ٣٦٦.

يصنع، في الشتاء، ويرجع الفرق بين نوعي الورق إلى المادة المستعملة في صناعته[1].

وقد صحب انتشار الورق تقدم فن تجليد الكتب، واستخدم الصناع جلود العجول، كما استخدموا الحرير، والديباج، والأطلس في تجليد المصاحف بصفة خاصة، كما تقدم فن الخط والتذهيب[2].

وقد برع صناع الجلود في عمل السروج المحلاة بالذهب والفضة، حتى لقد بلغت قيمة السرج الواحد من ألف دينار إلى سبعة آلاف دينار[3].

٤ - الزجاج والبلور والخزف:

ازدهرت صناعة الزجاج والبلور الصخري، في العصر الفاطمي، وبلغت هذه الصناعة درجة عظيمة من الرقي، وإن التحف التي تزخر بها متاحف القاهرة وأوربا خير شاهد على ذلك.

كانت مدينة الفسطاط من أكبر مراكز صناعة الزجاج، كما اشتهر بها أيضاً كل من مدينة الفيوم، والأشمونين المنيا، والإسكندرية وكانت مصر تصدر هذه الصناعات إلى بلاد النوبة[4] وإلى أقطار الشرق والغرب.

تفوقت صناعة الخزف ذي البريق المعدني، كما تفوقت صناعة الزجاج والبلور، وضعوا منه الأزيار الكبار، والأواني المستخدمة في حفظ العطور والبخور[5]. وعرفت مصر في ذلك العصر صناعة الفخار غير المدهون المصنوع من الطمي بعد إحراقه.

---

[1] الدولة الفاطمية _ د. حسن ابراهيم حسن _ ص ٥٩٠.

[2] المقريزي – خطط - ج١ - ص ٣٦٧.

[3] المصدر السابق _ ص ٤١٨.

[4] الدولة الفاطمية - د. حسن إبراهيم حسن - ص ٥٩١.

[5] كنوز الفاطميين _ زكي محمد حسن_ ص ١٤٩.

٥ - المعادن والعاج والفسيفساء:

برع صناع مصر في تصنيع المعادن والعاج والفسيفساء، فعرفت مدينة الفسطاط بصناعة الحديد المستورد من أوربا وصقلية وشمالي إفريقية، كما عرفت تنيس بصناعة المقصات والسكاكين[١]. وراجت صناعة الذهب والفضة اللتين استخدمهما الصناع في صنع الحلي والسروج والسيوف، وتذهيب المصاحف، ووشي الملابس الفاخرة. وليس من شك في أن التحف التي وصفها المقريزي تلقى ضوءاً ساطعاً، على تقدم هذه الصناعة ورقيها[٢].

أتقن تصنيع النحاس والبرونز، وعرفت صناعة التكفيت (وهو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة)، وكان لهذه الصناعة بمصر رواج عظيم، فلا تكاد تخلو دار في القاهرة، ومصر من عدة قطع نحاس مكفت[٣]. وازدهرت أيضاً صناعة العاج والفسيفساء[٤].

الصناعات النباتية

أنشأ الفاطميون في مصر إدارة خاصة للإشراف على أمور الزراعة، ورصدوا لأعمال الجسور ثلث الخراج السنوي، وقاموا بمشروعات كبرى لتنظيم الري. وبلغت الأراضي المستصلحة في عهد الخليفة المعز نحو ٢٥٠ ألف فدان. وانتشرت زراعة الكتان، وزراعة قصب السكر، ونبات الخشخاش، واختصت عين شمس بزراعة نبات طبي اسمه (البلسان). وراجت تربية النحل وصناعة العسل.

وكان قصب السكر من أهم الحاصلات الزراعية في مصر، لأنه عماد صناعة السكر والعسل[٥].

وراجت صناعة الزيت. إذ عني المصريون بزراعة النباتات الزيتية عناية كبيرة، فزرعوا الزيتون في منطقة الفيوم، والإسكندرية[٦]. كما كان

---

[١] الدولة الفاطمية - د. حسن ابراهيم حسن - ص ٥٩٣.

[٢] المقريزي _خطط _ ج١ _ ص ٤١٨ – ٤١٩.

[٣] المرجع السابق ج٢ ص ٢٣٢.

[٤] أحسن التقاسيم - المقدسي - ص ٧٣.

[٥] المقريزي – خطط - ج١ - ص ٢٧٠ – ٢٧٣.

[٦] أحسن التقاسيم _ المقدسي _ ص ١٩٧.

السمسم يزرع في جميع أنحاء البلاد[1]. وكانت أهم معاصر الزيت تقع في مدن مديرية المنيا، والفيوم، والفسطاط[2].

ولتنظيم الصناعة وضع الفاطميون عريفاً لكل مهنة يتولى أمر المشتغلين بها. وجعلوا لكل صناعة من الصناعات المعروفة نقابة خاصة لها، وكان للنقابات رأيها في تحديد الأجور التي تدفع لأهل كل صناعة، وللصناع. ومن وظائفها أيضاً:

_ تدريب الصبيان على تعلم أسرار المهنة.

_ مراقبة المشتغلين بالصناعة المعنية فنياً واقتصادياً.

_ حماية المستهلك من الربح الفاحش والغش وسوء الصناعة.

_ الاشتراك في تحديد الأسعار والأجور.

_ حل المنازعات التي تنشأ بين أفراد المهنة الواحدة.

_ تقديم بعض الخدمات الاجتماعية للأعضاء.

مساكن شعبية

بنى الفاطميون البيوت الشعبية والتي بلغ عددها ثمانية آلاف بيت في مدينة القاهرة وحدها، وكانت تؤجر للناس بالإيجار الشهري، وهو أول حدث من نوعه في تاريخ الدول.

مصادرة الممتلكات

أنشأ الحاكم بأمر الله (٩٦٦ - ١٠٢٠م) ديواناً خاصاً اسمه(ديوان المفرد) لإدارة الممتلكات والأموال المصادرة. وقد ضم هذا الديوان أملاك ابن جوهر الصقلي وأهله مثلاً.

وكان الحاكم يصادر أملاك رجاله إذا رآهم أثروا أكثر مما ينبغي. وامتدت يده بالمصادرة إلى أفراد أسرته أنفسهم، فاستولى على ما تملكه والدته

---

[1] تاريخ الدولة الفاطمية - د. حسن ابراهيم حسن - ص ٥٩٤.

[2] المقريزي - خطط -ج١ - ص ٤٦٢

وأخته، وزوجه، وعماته، وخواصه من النساء ... وبلغت المباني المصادرة وحدها ٢٧ ألف دار وحانوت.

سقوط الدولة الفاطمية

تقلد صلاح الدين الأيوبي الوزارة في مصر سنة ٥٦٥هـ/١١٦٩م، واستطاع أن يسيطر على مقدرات الدولة الفاطمية، ومن ثم القضاء عليها سنة ٥٦٧ هجرية/١١٧١م. وأرسل حملة إلى اليمن لمحاربة الإسماعيلين فيه.

كان العاضد هو الخليفة الرابع عشر والأخير في سلسلة الخلفاء الفاطميين. وقام المصريون بعدة ثورات ضد الحكم الأيوبي شملت معظم مدن مصر من الإسكندرية إلى حدود النوبة.

حكم تقدمي

سقطت الدولة الفاطمية، بعد أن حكمت مصر عصراً طويلاً، كان عصر يسر ورخاء، وتسامح ديني وثقافي، لم تتمتع به مصر من قبل. كتب الأستاذ أحمد صادق سعيد[1]:

«إن الحكم الفاطمي كان حكماً تقدمياً في نهاية الأمر، أو في التحليل الأخير. ويكمن الجذر العميق لصفته التقدمية في أنه مكن فئة من المنتجين الصغار في الزراعة والحرف، ومن صغار التجار بالداخل، من الازدهار فترة تقرب من القرن، وعبر عن آمالهم وأوهامهم الغامضة في الفترة الثانية.

وقد ساعد الظرف المحيط المواتي على إضفاء هذه الصفة التقدمية. والسمة الأولية في التقدمية الفاطمية هي الأبوية الإيجابية. والسمة الثانية هي تعبئة المصريين في الجيش الفاطمي. والسمة الثالثة هي الاستقرار السياسي النسبي».

ويتابع: «لم تكن الدولة الفاطمية في مصر جهازاً للحكم فحسب بل تتبعها شبكة من الدعاة ممتدة من فارس إلى المغرب ومن صقلية إلى عدن والبحرين... أي أننا أمام حركة سياسية أيضاً، وصلت إلى قمتها أيام خلفاء القاهرة،

---

[1] تاريخ مصر الاجتماعي الاقتصادي – ص٣٠٢ و٣٠٣

ولكنها بدأت قبل استيلاء جوهر الصقلي على مصر، كما استمرت مدة طويلة بعد صلاح الدين الأيوبي».

الفصل الخامس

رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء

- من هم أخوان الصفا
- الأخوان والشريعة
- المعرفة والنفس
- الفلسفة في رسائل
- الحرية الدينية
- التأويل

من هم إخوان الصفاء؟

إن رسائل إخوان الصفا، هي أول موسوعة عربية - إسلامية ظهرت على مسرح المعرفة والفكر العربي، كما أنها أقدم مصدر في الفلسفة الإسلامية. فقد ضمت في دفتيها، البديع والإيجاز والبيان والبلاغة والحكمة. أما العلوم والفنون التي وردت فيها، فهي: الفلك والرياضيات، والعدد، والموسيقى والهندسة والطب، والأدب، وعلم الحيوان، والتربية، والشعر، وعلوم أخرى ابتدعها العقل العربي، في عصر مبكرٍ من عصور الإسلام، وفي فترة كانت الفلسفة تعتبر ضرباً من الكفر والإلحاد.

تقسم الرسائل إلى أربعة أقسام:

١- رياضية تعليمية وهي أربعة عشر رسالة.

٢- جسمانية طبيعية وهي سبعة عشر رسالة.

٣- نفسانية عقلية وهي عشرة رسائل.

٤- ناموسية إلهية وهي إحدى عشرة رسالة.

واضعو الرسائل:

قال أبو حيان التوحيدي[1]، إن واضعي الرسائل من سكان البصرة، في القرن الرابع للهجرة، وهم: أبو سليمان محمد بن معشر البستي المعروف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هرون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، والعوفي، وزيد بن رفاعة.

وجاء الشهرزوري بعد أبي حيان ليضيف اسم ابن سينا إلى تلك الأسماء. واستناداً إلى ذلك ذهب أكثر الباحثين لتبني ما كتبه أبو حيان حول واضعي الرسائل.

كتب القفطي بكتابه تاريخ الحكماء: «ولما كتم مصنفوها - أي الرسائل - أسماءهم اختلف الناس في الذي وضعها، فكل قوم قال قولا بطريق الحدس والتخمين، وقال قوم هي من كلام بعض الأئمة من نسل علي بن أبي طالب».

---

[1] الامتاع والمؤانسة - ج٢ - أبو حيان التوحيدي - ص٣و٤.

ذكر عبدان القرمطي بأن الإمام أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو مؤلف رسائل إخوان الصفاء[1].

يرى الدكتور حسين مروة[2] أنه «كان لإخوان الصفاء وجود مستقل عن التنظيم الإسماعيلي، رغم ما نراه من نقاط الالتقاء الكثيرة بينهما، ولكن وجودها المستقل لا ينفي أن يكون لها نوع من الارتباط المبدئي أو المذهبي بأصول الإسماعيلية».

وبين جويار منذ عهد بعيد الطابع الإسماعيلي للرسائل (عالم المعرفة ٢٣٤ ـ ١٤٨).

أما الباحث الإسماعيلي الدكتور مصطفى غالب، فقد كتب يقول[3]: «وتجمع النصوص التاريخية الإسماعيلية التي تناهت إلينا على أن الذين قاموا بتأليف هذه الرسائل (إخوان الصفاء) كانوا من العلماء وكبار الدعاة، فإمامهم عالم كبير ومؤلف ذائع الصيت، وحجته عبد الله بن ميمون القداح كان من أبرز علماء عصره. ولقد لخص الإمام (الوفي أحمد) هذه الرسائل برسالة واحدة سماها (الرسالة الجامعة)، ثم وضع رسالة أخرى جمعت علوم جميع هذه الرسائل سماها (رسالة زبدة رسائل إخوان الصفاء)». ويقول د. غالب أيضاً: «ويكفي سلمية فخراً أنها أنجبت جماعة إخوان الصفاء»[4].

أصاب الباحث الإسماعيلي الدكتور عارف تامر كبد الحقيقة حين قال[5]: «لا يمكن لأي باحث في رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء مهما أوتي من علم وذكاء، أن يفي الموضوع حقه، أو أن يصل إلى الهدف الأسمى والغاية المثلى ما لم يضع نصب عينيه المصادر الإسماعيلية..، وهذه المصادر كانت مفقودة ويعيدة

---

[1] الدور الإنساني للحضارات العربية ومواضع التزوير في التاريخ العربي ـ أحمد عبد الحميد الحسين ـ دار عشتروت ١٩٩٦ ـ ص١٧٧.

[2] النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ـ ج٢ ـ د. حسين مروة ـ ص٣٦٤.

[3] سنان راشد الدين ـ شيخ الجبل الثالث ـ د. مصطفى غالب ص٣٤و٣٥.

[4] أعلام الإسماعيلية ـ د. مصطفى غالب ـ ص٣٧.

[5] الحقيقة في وسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ـ د. عارف تامر ـ ص٩.

عن متناول أيدي العلماء والباحثين..، وإن ظهورها من كهف تقيتها لم يتعد سنين معدودة ولعل هذا هو عذر الباحثين الذين لم يقدّر لهم الاطلاع عليها، والتعمق في دراستها، ومقابلة نصوصها الفلسفية بنصوص أخرى من كتب الإسماعيلية».

يذكر الدكتور تامر، العديد من المصادر الإسماعيلية التي تؤكد أن الإمام عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق هو واضع رسائل إخوان الصفاء، وجعل عددها /٥٢/ رسالة لحكمة فلسفية وتأويلية، وأن هذا العدد مطابق لعدد حروف اسم المؤلف في حساب الجمل على هذه الصورة: [1]

	ع	ب	د	ا	ل	ل	هـ	ب	ن	م	ح	م	د	عبد الله بن محمد
٥٢=	٧	٢	٤	١	٣	٣	٥	٢	٥	٤	٨	٤	٤	

ويتابع د. تامر: «..، وكان أول عمل قام بتحقيقه الإمام عبد الله بن محمد هو تنظيم الدعوة والبدء بتأليف الرسائل الآنفة الذكر، ولكن ومع كل أسف مات قبل أن ينجز هذا المشروع الكبير، مما حمل ولي عهده الإمام (أحمد بن عبد الله) المولود في بلدة سلمية سنة ١٩٨هـ، والمتوفى في بلدة مصياف سنة ٢٦٥هـ على إنجازه وقد أضاف إليها رسالة (الجامعة) التي هي لب الرسائل وقلبها وثمرتها».[2]

يرى د. عارف تامر أن «إخوان الصفاء وخلان الوفاء» أطلق اصطلاحاً على الدعاة المكلفين بإدارة شؤون الدعوة الإسماعيلية في أوقات الستر أو الظهور، وقد احتفظ الدعاة بهذا الاسم حتى عهد آخر خليفة فاطمي في مصر[3].

أرى أن حصر إخوان الصفاء بالدعاة فقط مسألة قابلة للنقاش، لأسباب عديدة، منها:

- إن مرتبة الداعي هي واحدة من الهيكل التنظيمي للدعوة الإسماعيلية، فهناك مراتب أدنى منها، كما يوجد أعلى منها.

---

[1] المصدر السابق - ص١٤.

[2] المصدر السابق - ص١٦.

[3] المصدر السابق - ص١٦.

- يجتمع الإخوان سراً فيتباحثون في العلوم والسياسة والاجتماع .. ليعملوا بين الناس، وبالتالي تنسيب البعض للتنظيم، وقد حددوا الناس حسب أعمارهم، وبينوا أن العمل بين الشباب هو الأكثر جدوى، فهم يوصون المنتسبين إلى هذه الجمعية والمسجلين في عدادها أن لا يشغلوا بالهم بالتبشير بمبادئها لمن هم من المشائخ الهرمة، الذين اعتقدوا منذ صغرهم اعتقادات فاسدة وعادات رديئة، فهؤلاء يتعبون المبشرين ولا ينصلحون ومن المؤكد أن الموافقين على الانضمام للدعوة لن يرقوا مباشرة إلى مراتب أعلى بل سيتدرجون فيها وفقاً لمعايير محددة.

- يؤكد ذلك ما كتبه د. تامر نفسه: «أن أعضاء جمعية إخوان الصفاء كانوا في كل قطر يكون فيه فرع للدعوة الإسماعيلية»[1].

إن إخوان الصفاء تنظيم حزبي سري مناهض للدولة العباسية، ومناهض للنظام الاجتماعي الذي تمثله، ويصفون الخلفاء العباسيين بـ «الظالمين المعتدين على الضعفاء والمساكين»[2] . ومن المؤكد أن أكثرهم نشأ من أوساط فلاحية، أو فئات تجارية، أو حرفية، أو من أوساط الفقراء المعدمين. وبالتالي فإن كلمة إخوان الصفا ستطلق على مجموع التنظيم.

الإخوان والشريعة:

إنهم يستخدمون تأويل الشريعة، ويرون أن ظاهر الشريعة هو الذي يصلح للعامة يداوي منها النفوس المريضة الضعيفة. غير أن العقول القوية تتغذى الحكمة العميقة المستمدة من الفلسفة[3]. كما أنهم يرفضون التقليد المطلق لظاهر الشريعة.

كتب د. حسين الهمذاني: «إن الإسماعيلية يرون القرآن الكريم كتاب العامة، ويرون رسائل إخوان الصفاء كتاب الأئمة»[4].

---

[1] المصدر السابق - ص١٦.

[2] رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء - ج٣ - ص١٧٧ و ص٣٤.

[3] رسائل إخوان الصفاء - ج٤ - ص٤٦.

[4] أعلام الاسماعيلية - د. مصطفى غالب - ص١٣٤.

وكانوا يرون أن الشريعة كاللباس، فإذا كنت على ساحل البحر ولبست اللباس الخاص بالبحر فلا ضير عليك، ولو لبسته في الداخل (بعيداً عن البحر) فإنك مخالف وقد تبدو عند الآخرين شاذاً.

إنهم يعارضون مفهوم الشريعة الذي تتأسس عليه الإيديولوجية الرسمية لدولة الخلافة.

يتقدم الإسماعيلية على الصوفية في مجال الصراع الاجتماعي الذي اكتسب عندهم محتوى اجتماعياً. ويتابعون موقف المعتزلة في مسألة القدر ويرفضون موقف الجبرية.

المعرفة والنفس:

للمعرفة عند الإخوان أركان ثلاثة، هي: ١- الحواس الخمس، ٢- العقل، ٣- البرهان.

وللنفس ثلاثة أقسام هي:

١- الطبيعية: وهي نباتية، وحيوانية، وناطقة (الإنسانية).

٢- الحساسة، وهي الحواس الخمس.

٣- الروحانية (يقصد بها القوى المفكرة)، وهي: المتخيلة، والمفكرة، والحافظة، والناطقة، والصانعة.

يقودنا ما سبق للقول إن إخوان الصفاء قد أدركوا حقيقة الترابط المادي العضوي بين كل من عملية الحياة، وعملية الإحساس، وعملية التفكير وهم يفترضون ثنائية النفس والجسد، ورأوا الأساس المادي لعملية التفكير، وأن كل معرفة عند الإخوان تتم بالاكتساب.

الفلسفة في الرسائل:

إن ثلاثة أرباع الرسائل يدور حول العلم، وقد استفادوا إلى أقصى حد من العلوم التطبيقية التي وصل إليها عصرهم. وإن معظم عملهم الموسوعي في تفسير العالم، يستند إلى مباحثهم في العلوم الرياضية الطبيعية أكثر مما يستند إلى المعارف اللاهوتية. قال إخوان الصفا في قوس قزح أنه يحدث حينما يكون

«الهواء مشبعاً بالرطوبة ولا يكاد يحدث إلا في طريق النهار وفي الجهة المقابلة لموضع الشمس»[1] . وقالوا: إن اختلاف الموجودات، إنما هو بالصورة لا بالهيولى.

وعند تفسيرهم عملية التفكير، يضعون في البدء قاعدة انطلاق الإنسان إلى المعرفة، وهي ذات أركان ثلاثة مرتبة من الأدنى إلى الأعلى:

١- الحواس الخمس: مشتركة بين الإنسان والحيوان، وهي أدنى مراحل المعرفة عند الإنسان.

٢- العقل: إنه أداة للمعرفة، مشتركة بين الناس البالغين جميعاً، وهو غير موصل وحده إلى العلم، فلا بد إذن من مرحلة أعلى منه للوصول إليه، وهي مرحلة:

٣- البرهان : وكل معرفة عندهم هي اكتسابية وتحصل باستخدام الحواس، والعقل، والبرهان، كما أن للمعرفة العلمية ارتباط بالنشاط الاجتماعي.

أدرك الإخوان حقيقة الترابط المادي العضوي بين كل من عملية الحياة، وعملية الإحساس، وعملية التفكير.

وهم يقولون: «النفس واحدة بالذات، وإنما تقع عليها هذه الأسماء (النامية، الحيوانية، الناطقة) بحسب ما يظهر منها من الأفعال»[2] .

إن الإنسان كثير التلون قليل الثبات على حال واحدة، وذلك أن قليلاً من الناس من تحدث له حال من أحوال الدنيا، أو أمر من أمورها إلا ويحدث له خلق جديد.

ولما كان الإمام بمنزلة النبي فإن الشريعة والدين يتجددان بصورة دورية.

جاء في الرسائل:

«وأما ما اصطلحوا عليه من الكيل والوزن والثمن والأجرة، فإن ذلك حكمة وسياسة، ليكون حثاً لهم على الاجتهاد في أعمالهم وصنائعهم ومعاوناتهم، حتى

---

[1] تاريخ العلوم عند العرب - عمر فروخ - ص٢٣٤.

[2] رسائل إخوان الصفاء - ج٢ - ص٣٢٥ و ٣٢٦.

يستحق كل إنسان من الأجرة بحسب اجتهاده في العمل ونشاطه في الصنائع»[1].

إن تطابق آراء ابن طفيل وإخوان الصفاء في موضوعة تولد الحياة البشرية، وتطورها يمكن أن يشهد على التأثير المحتمل الكافي الذي تركوه في ابن طفيل حين معالجته موضوع حي بن يقظان. ليس هذا وحسب بل إن إخوان الصفا هم أول من قالوا بالانتخاب الطبيعي قبل دارون بما يزيد عن تسعة قرون. وإن هذا القانون الذي يعد الإطار العام وفيه تتم عملية النشوء والارتقاء لعالم الأحياء بكافة مراتبه، وبكافة أجناس وأنواع كل مرتبه من سلك التطور العضوي، يجب أن ينسب إلى أخوان الصفا إنصافاً لهم وللعلم وللحقيقة وقال إخوان الصفا بمبدأ من أهم مبادئ سنن الحياة وتطورها، الذي يشير في مضمونه إلى أهمية العامل الوراثي في نقله الصفات الموروثة من السلف إلى الخلف عند الكائنات الحية. (الصبغيات)*

الحرية الدينية:

آمن الإسماعيليون بالحرية الدينية، ووقفوا ضد التعصب الديني. وخير تعبير عن هذا نجده في رسائل إخوان الصفاء، فمما جاء فيها:

«ومن الناس من يرى ويعتقد في دينه ومذهبه الرحمة والشفقة للناس كلهم، ويرثي للمذنبين ويستغفر لهم. ويتحنن على كل روح من الحيوان، ويريد الصلاح للكل وهذا مذهب الأبرار والزهاد والصالحين من المؤمنين. وهكذا مذهب إخواننا الكرام».

«واعلم أيها الأخ أن من سعادتك أيضاً أن يتفق لك معلم ذكي جيد الطبع، حسن الخلق، صافي الذهن، محب للعلم، طالب للحق غير متعصب لرأي من المذاهب».

«وينبغي لإخواننا ـ أيدهم الله ـ أن لا يعادوا علماً من العلوم أو يهجروا كتاباً من الكتب، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها».

---

[1] رسائل إخوان الصفاء ـ ج١ ـ ص٦٢و٦٣.

* الفكر الانتروبولوجي في التراث الفكري العربي – د. علي عبد الله الجبادي - ص ١٥٩ – ١٦٢.

إن كل ذي بصيرة يرى في رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء كنزاً ثميناً في تراثنا العربي - الإسلامي، رغم كل محاولات أنصار الظلم، وأعداء الحق، قديماً وحديثاً طمس ذلك.

تعتبر الرسائل وبحق برنامجاً فكرياً وتنظيمياً يحتوي استراتيجية وتكتيكاً. أما الاستراتيجية فهي تقوم على هدم دولة أهل البغي وإقامة دولة أهل الخير جاء في الرسائل: «واعلم أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من قوم علماء حكماء أخيار فضلاء، يجتمعون على رأي واحد، ويتفقون على مذهب واحد ودين واحد، ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً ألا يتجادلوا ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضاً، ويكونون كرجل واحد في جميع أمورهم وكنفس واحدة في جميع تدبيرهم فيما يقصدون»[1].

ولما كانت الحركة الإسماعيلية متوزعة في أكثر البلدان العربية - الإسلامية، فإن ظروف النضال ستختلف من مكان إلى آخر، ومن هنا تمتع الدعاة بحرية كبيرة في العمل، وهذا شكل التكتيك الذي توحي به الرسائل. أما البناء التنظيمي فسيكون أيضاً مرناً ليصبح أكثر قدرة على الحركة، فالإمام الذي سيكون في قمة الهيكل التنظيمي، وهو ركن من أركان الدعوة الإسماعيلية ولا يجوز أن يخلو زمان منه، فهو الثابت. أما الهيكل التنظيمي وأساليب العمل، فمتغيرة ومتبدلة وفقاً لضرورات النضال والظروف المعينة. نجح الاسماعيليون بفضل ذلك نجاحاً كبيراً وقد أتقنوا أيما اتقان التوفيق بين العمل السري والعمل العلني.

فأبو العلاء المعري كان مسؤولاً عن الدعوة الفاطمية في العراق[2]، فهو رجل كفيف يعيش في القسم الغربي من سورية، والدعوة الفاطمية في العراق ممنوعة، وتعمل في ظروف السرية الشديدة، ولا تثير زيارات أبي العلاء للعراق أية شبهة.

---

[1] رسائل إخوان الصفاء طبعة مصر - ج - ص٩٨.

[2] زوبعة الدهور - مارون عبود.

مهما كتب عن الرسائل أو قيل فيها، فإنه لا يفيها حقيقتها، ولا بد من قرائتها، فبقرائتها والتمعن فيها يخرج الإنسان بأشياء جديدة لا تتضب وهذا لا يمنع أخذ مقتطفات من الرسالة الثامنة من الجسمانيات الطبيعيات في كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها، وهي الرسالة الـ٢٨. ويسميها أحدهم[1] : رسالة تداعي الحيوانات على الإنسان أو رسالة الحيوان والإنسان، وسماها آخر رسالة احتجاج الحيوان على الإنسان. وفيها تحتج الحيوانات على ظلم الإنسان لها وتشتكي إلى ملك الجان الذي يقيم بدوره محكمة يستمع فيها إلى أقوال الطرفين، وفيما يأتي بعض منها:

قال زعيم الإنس:

نعم أيها الملك، إن هذه البهائم والأنعام والسباع والوحوش والحيوانات أجمع، عبيدنا ونحن أربابها فمنها هارب عاص، ومنها مطيع كاره منكر للعبودية.

فقال الملك للإنسي:

ما الدليل وما الحجة على ما زعمت وادعيت؟

قال الإنسي:

نعم أيها الملك ... لنا دلائل شرعية سمعية على ما قلت، وحجج عقلية. فقال هات:

فقام خطيب من الإنس من أولاد العباس رضوان الله عليه، فصعد المنبر، وبعد أن حمد الله وصلى على نبيه، قرأ الآيات القرآنية الآتية:

«وعليها وعلى الفلك تحملون»، «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة»، و«لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه». وقال: هناك آيات كثيرة في القرآن وفي التوراة والإنجيل تدل على أنها خلقت لنا ومن أجلنا وهي عبيد لنا ونحن أربابها، واستغفر الله لي ولكم.

قال الملك:

قد سمعتم معشر البهائم والأنعام ما ذكر الإنسي من آيات القرآن واستدل بها على دعواه، فأي شيء عندكم فيما قال؟

---

[1] قدم لها فاروق سعد - دار الآفاق - بيروت ١٩٨٣.

فقام عند ذلك زعيمها وهو البغل فقال:

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد القديم السرمدي. الذي كان قبل الأكوان بلا زمان ولا مكان. ثم قال كن، فكان نوراً ساطعاً أظهره من مكنون غيبه، ثم خلق من النور ناراً أجَّاجاً وبحراً من الماء رجراجاً ذا أمواج. ثم خلق من الماء والنار أفلاكاً ذات أبراج وكواكب وسراجاً وهاجاً..، وجعل أطباق السموات مسكن العليين، وفسحة الأفلاك فنزل الملائكة المقربين. والأرض وضعها للأنام وهي النبات والحيوان. وخلق الجان من نار السماوات، وخلق الإنس من طين...، وجعل ذريته في الأرض يخلفون ليعمروها ولا يخربوها. ويحفظوا الحيوان وينتفعوا بها ولا يظلموها ولا يجوروا عليها. وأستغفر الله لي ولكم. ثم قال:

ليس في شيء مما ذكر هذا الإنسي من الآيات أيها الملك دلالة تدل على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد، إنما هي آيات تدل على إنعام الله عليهم وإحسانه إليهم، فقال: "سخرها لكم كما سخر الشمس والقمر والرياح والسحاب" أفترى أيها الملك إنها عبيد لهم ومماليك وأنهم أربابها؟

وتحدث زعيم البهائم كيف أن الحيوانات كانت موجودة قبل خلق آدم، وكيف أنها كانت تعيش آمنة مطمئنة وتسبح الله وتقدسه ليلاً ونهاراً، وبعد أن خُلق آدم وتكاثرت ذريته صاروا يضيقون عليهم ويتفنون في اصطيادهم، وقهرهم.

فلما سمع الملك هذا الكلام..، أمر منادياً فنادى في مملكته ودعا الجنود والأعوان من قبائل الجن والقضاة والعدول والفقهاء وقعد لفصل القضايا بين زعماء الحيوانات والجدليين من الإنسان. ثم قال لزعماء الإنس:

ما تقولون فيما يحكي هذه الأنعام والبهائم عن الجور، ويشكون من الظلم والتعدي منكم؟

قال زعيم الإنس:

إن هؤلاء عبيدنا ونحن مواليها..، فمن أطاعنا فقد أطاع الله ومن عصانا عصى الله.

قال الملك للإنسي:

إن الدعاوى لا تصح عند الحكام إلا بالبينات ولا تقبل إلا بالحجج.. فما حجتك فيما قلت وادعيت؟

قال الإنسي:

إن لنا حججاً عقلية ودلائل فلسفية تدل على صحة ما قلنا.

قال الملك:

ما هي؟ بيّنها

قال: نعم هي حسن صورتنا وتقويم بنية هيكلنا وانتصاب قامتنا وجودة حواسنا ودقة تمييزنا وذكاء نفوسنا ورجحان عقولنا: كل هذا دليل على أنّا أرباب وهم عبيد لنا.

قال الملك لزعيم البهائم: ما تقول فيما ذكر؟

قال: ليس شيء مما قال دليلاً على ما ادعى هذا الإنسي.

قال الملك:

أليس انتصاب القامة واستواء الجلوس من شيم الملوك وانحناء الأصلاب والإنكباب على الوجوه من صفات العبيد؟

التلاؤم مع البيئة*

قال الزعيم:

وفقك الله أيها الملك الصواب . اسمع ما أقول واعلم بأن الله تعالى لم يخلقهم على تلك الصورة ولا سوّاهم على تلك البنية لتكون دلالة على أنهم أرباب. ولا خلقنا على هذه الصورة لتكون دلالة على أنا عبيد. ولكن لعلمه واقتضاء حكمته بأن تلك الصورة أصلح لهم وهذه أصلح لنا.

ولما كانت الأشجار منتصبة مرتفعة في جو الهواء، جعل أيضاً قامتهم منتصبة ليسهل عليهم تناول الثمر والورق منها. هكذا جعل أيضاً غذاء أجسامنا من

(*) عنوان من وضع المؤلف.

حشائش الأرض جعل بنية أبداننا منحنية ليسهل علينا تناول العشب من الأرض. فلهذه جعل صورتها منتصبة وصورتنا منحنية لا كما توهموا.

التأويل*

قال الملك: فما تقول في قول الله تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»؟

قال الزعيم: "إن للكتب السماوية تأويلات وتفسيرات غير ما يدل عليه ظاهر ألفاظها يعرفها الراسخون في العلم فليسأل الملك عنها أهل الذكر والعلم.

قال الملك لحكيم الجن: ما معنى «أحسن تقويم؟» قال:

اليوم الذي خلق الله تعالى آدم فيه كانت الكواكب في إشراقها وأوتاد البيوت قائمة والزمان معتدلاً والمواد كانت متهيئة لقبول الصور فجاءت بنيته في أحسن صورة وأكمل هيئة.

قال الملك: فكفى بهذا فضيلة وكرامة وافتخاراً!

ثم قال حكيم الجن:

إن لحسن التقويم معنى غير ما ذكر وبين ذلك قوله تعالى: «الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك».

يعني لم يجعلك طويلاً دقيقاً ولا صغيراً قصيراً بل ما بين ذلك.

قال زعيم البهائم:

ونحن كذلك فعل بنا أيضاً لم يجعلنا طوالاً دقاقاً ولا صغاراً قصاراً بل بين ذلك فنحن وهم في هذه الفضيلة بالسوية.

قال الإنسي لزعيم البهائم:

من أين لكم اعتدال القامة واستواء البنية وتناسب الصورة، وقد نرى الجمل عظيم الجثة طويل الرقبة صغير الأذنين قصير الذنب..، فقال له زعيم البهائم: .. أما علمت أنك إذا عبت المصنوع فقد عبت الصانع؟

(*) من وضع المؤلف.

... إننا لا نرغب في محاسن إناثكم ولا إناثنا في محاسن ذكرانكم..، فلا فخر لكم علينا في محاسن الصورة أيها الإنسي!.

... والإنسي ربما مضى به الشهر والشهران أو أكثر وهو لا يعرف والدته من أخته ولا والده من أخيه.

فأين جودة الحواس ودقة التمييز التي ذكرت وافتخرت به علينا أيها الإنسي؟

خاف الإنس من أن يصدر الحكم ضدهم، فقال أحدهم: إن استشار الملك الفقهاء والقضاة ماذا يشيرون به في أمرنا؟ فقالوا: هؤلاء أمرهم سهل، يحمل إليهم شيء من التحف والرشوة، فيحسن رأيهم فينا، ويطلبون لنا حيلاً فقهية، ولا يبالون بتغيير الأحكام بيننا.

حكم الشريعة*

وقال آخر: لا تخلو فتاوى العلماء وحكم القاضي من إحدى ثلاثة وجوه: إما عتقها وتخليتها من أيدينا، أو بيعها وأخذ أثمانها، أو التخفيف عنها والإحسان إليها. ليس في حكم الشريعة من أحكام الدين غير الوجوه الثلاثة. أو يقول القاضي: أين الصكوك والوثائق والعهود هاتوها إن كنتم صادقين، ماذا نقول ونفعل؟

فلم يكن عند الجماعة جواب لذلك إلا عند الأعرابي فإنه قال: نقول قد كانت لنا عهود ووثائق وصكوك ولكنها غرقت في أيام الطوفان. فإن قال احلفوا بأيمان مغلظة بأنها عبيد لكم، نقول: اليمين على من أنكر ونحن مدَّعون!

يأخذ كل واحد من الإنس بالتفاخر بما عنده ويبرهن أنه مميز عن الجميع، إلا أن أحد حكماء الجن يتصدى لهم، ويقال لهذا الحكيم صاحب العزيمة والصرامة، لأنه ما كان يحابي أحداً إذا تكلم بل يُقبل على خطئه وزلله، ويرده عن غيه وضلاله!

(*) العنوان من وضع المؤلف.

ففي رده على شخص من إيران، قال: يا معشر الحكماء قد ترك هذا الإنسي شيئاً لم يذكره في خطبته وهو ملاك الأمر وعمدته.

فقال الملك: وما هو؟

قال الحكيم:

لم يقل من عندنا خرج الطوفان فغرق ما على وجه الأرض من النبات والحيوان، وفي بلادنا اختلفت الألسن وتبلبلت العقول وتحير أولو الألباب، ومنا كان نمرود الجبار، وطرحنا إبراهيم في النار. ثم وجه الحكيم خطابه لرجل من تهامة، قريشي وقال له: قل إننا تركنا الدين ورجعنا مرتدين بعد وفاة نبينا شاكين منافقين، وقتلنا الأئمة الفاضلين الخيرين طلباً للدنيا والدين.

وقال صاحب العزيمة لليوناني:

من أين لكم هذه العلوم والحكم التي ذكرتها وافتخرت بها لولا أنكم أخذتم بعضها من علماء بني إسرائيل أيام بطليموس، وبعضها من حكماء مصر أيام ثامسطيوس فنقلتموها إلى بلادكم ونسبتموها إلى نفوسكم؟

وأخيراً قال للجميع:

وأما فقهاؤكم وعلماؤكم فهم الذين يتفقهون في الدين طلباً للدنيا وابتغاء للرئاسة فيها والولايات والقضاء والفتاوى بآرائهم ومذاهبهم، فيحللون تارة ما حرم الله ورسوله، ويحرمون تارة ما أحل الله ورسوله بتأويلاتهم الكاذبة ويتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة، ويتركون حقيقة ما أنزل الله من الآيات المحكمة، وينبذونها وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ويتبعون ما تتلو الشياطين على قلوبهم من الخيالات والوساوس: كل هذا طلباً للدنيا ومكسباً للرئاسة من غير ورع ولا تقوى من الله وأولئك هم وقود النار في الآخرة، فأيُّ فخر لكم بهم؟!

وتنتهي الرسالة بالقول: ونحن قد بينا في هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب على لسان الحيوانات، فلا تظنن بنا ظن السوء ولا تعد مقالتنا ملعبة الصبيان ومخرقة الإخوان لأن عادتنا جارية على أن نبين الحقائق بألفاظ وعبارات على وجه الإشارات وتشبيهات على لسان الحيوانات.

وأخيراً أود الإشارة إلى بعض التفسيرات التي قدمها الدكتور عارف تامر في مقدمته للرسائل:

جاء في الرسالة الآنفة الذكر : "الحيوان ملزوم بخدمة الإنسان طوعاً وكرها، فهو متصرف فيه وحاكم عليه، كتصرف العالم العلوي في العالم السفلي".

فسره د. تامر: إن إخوان الصفاء يقرون بالفلسفة القائلة أن العالم العلوي يتحكم في العالم السفلي، وأن ممثوله هو تحكم الإنسان بالحيوان، وتحكم أهل الشر بأهل الخير[1].

إن الحيوانات هم مثل على أهل الدعوة المأسورين والمحكومين من قبل الإنسان، وهذا معنى قول إخوان الصفاء: [2]((البهائم الأليفة هي الأسيرة في أيدي أصحاب الرأي والقياس والعمل والالتباس، التي ليس بأيديها لا حول ولا طول، كالغنم والبقر وما شاكلها)).

جاء في الرسالة: ثم أنه ولي على بني الجان ملك في جزيرة (صاغون)، إلى أن جاء مركب إلى الساحل فخرج من فيه إلى الجزيرة..، فأرسل ملك الجن إليهم رسولاً ودعاهم إلى حضرته، فذهب أهل المركب وعددهم سبعون من بلدان شتى، ثم أوصلهم إلى مجلسه بعد ثلاثة أيام. فقال لهم:

لماذا جئتم إلى جزيرتنا دون دعوة.. فقال قائل منهم: سمعت الكثير من الفضائل والمناقب، فجئنا لنُسمع كلامنا، ويحكم بيننا وبين عبيدنا الآبقين المنكرين..

يرى د. تامر[3] : أن جزيرة صاغون على حد تعبير واعتقاد إخوان الصفاء هي مدينة أهل الخير..، والبحر في التأويل الإسماعيلي هو العلم الإمامي الحقيقي، والسفينة هي الدعوة الإمامية سواء أكانت ظاهرة أو مستورة، وركاب السفينة

---

[1] الحقيقة في رسائل إخوان الصفاء - د. عارف تامر - ص٢٦.

[2] المصدر السابق - ص٢٧.

[3] المصدر السابق - ص٢٨ و٢٩.

هم أهل الإسلام وقد جاء أنهم عندما غادروا بلدهم وجاؤوا إلى جزيرة صاغون كانوا سبعين رجلاً، وهذا معناه أن هذه السفينة ضمت ممثلين عن الفرق الإسلامية الثلاث والسبعين..، لأن الملك لم يسمح لهم بالدخول عليه إلا بعد ثلاثة أيام أي لحين انضمت إليهم فرق ثلاثة أخرى..، وعندئذ بدأت المحاكمة بينهم وبين المؤمنين أصحاب مدينة أهل الخير- أي الفرقة الناجية -

وجاء في الرسالة أيضاً:

قال صاحب العزيمة: أرأيتم إن عجزت هذه البهائم عن مقاومة الإنس في الخطاب لقصورها عن الفصاحة والبيان، واستظهرت الإنس عليها بذرابة ألسنتها وجودة عبارتها وفصاحتها، أترى أن تبقى هذه البهائم أسيرة في أيديهم ليسومونها سوء العذاب دائماً. قال: لا... ولكن تصير هذه البهائم في الأسر والعبودية، إلى أن ينقضي دور القران، ويستأنف نشوء آخر..

يقول د. تامر:[1] هذا المقطع جاء في آخر المحاكمة، وفيه أن أصحاب العزيمة ملك أو رئيس الدعوة أو الحاكم أو الإمام، عندما رأى أن الإنس وهم أصحاب الظاهر المخالفين للدعوة الإمامية، بذرابة ألسنتهم وجودة عباراتهم وفصاحتهم، قد تمكنوا من التغلب على المؤمنين الطائعين - أي أهل المدينة الفاضلة والحكم بأن يبقى المؤمنون تحت حكم هؤلاء، أي أن لا تقوم لهم دولة ما، حتى يبزغ النشوء بظهور قائم الزمان.

---

[1] المصدر السابق- ص٢٩ و٣٠.

الفصل السادس

الإسماعيليون والتصوف

- السهروردي
- ابن عربي
- وحدة الوجود
- الإنسان الأكبر

أدرك الاسماعيليون أهمية حركة التصوف والدور الخطير الذي يمكن أن تلعبه جماهيرها، سواء من حيث اتساع قاعدتها الشعبية، أو من حيث الفئات والشرائح التي ينتمي إليها المتصوفة، زد على ذلك وجود قواسم مشتركة بين الحركتين، في العديد من القضايا، وبخاصة فيما يتعلق بتفسير العالم. لكل ذلك خصص الاسماعيليون جزءاً من نشاطهم للعمل في هذا المجال وحققوا في ذلك نجاحاتٍ كبيرة. يتحدث الدكتور مصطفى غالب عن الشاعر عامر البصري قائلاً:

"كان من كبار شعراء الدعوة الإسماعيلية الذين عاشوا في دور الستر الأول ويستنتج من تائيته المسماة باسمه، أنه كان صوفياً بين الصوفيين، وفقيراً بين الفقراء، وأميراً بين الامراء، وعالماً بين العلماء، وشاعراً فحلاً بين فحول الشعراء، أي أنه كان يلبس لكل حالة لبوسها"[1] وفيما يأتي بعض الأبيات من تلك القصيدة:

تجلى لي المحبوب من كل وجهةٍ ... فشاهدته في كل معنى وصورة
وخاطبني لطفاً بكشف حقائق ... عالت عن الاغيار حقاً وجلت
فقال لذاك الأمر لكنما إذا ... تعينت الاشياء لي كنت نسختي
وأوصلت ذاتي باتحاد بذاته ... بغير حلول بل بتخفيض نسبتي
وانظر في مرآة ذاتي مشاهداً ... لذاتي بذاتي وهو غاية غايتي

لم يكن البصري وحده من خاض غمار العمل، في التصوف، وبين المتصوفة، بل برزت شخصيات اسماعيلية عددية، كالسهروردي، وابن عربي. ولقد لعبت هذه الشخصيات أدواراً قيادية، كما أنها طورت، وبلورت مفاهيم كالاشراق، ووحدة الوجود... وخلقت مدارس للتصوف انتشرت في كثير من بقاع العالم، ولا تزال مثار إعجابٍ ومدعاةٍ للدرس والبحث.

---

[1] أعلام الإسماعيلية – د. مصطفى غالب – ص٢٢٣ و ٣٢٥.

السهروردي:

أنه شهاب الدين يحيى بن حبش بن اميرك أبو الفتوح. ولد في بلدة سهرورد من اعمال زنجان، في ايران، واختلف في سنة ولادته: ٥٤٥، ٥٤٩، أو ٥٥٠ هـ /١١٥٥م.

أرسله أبوه لطلب العلم في المدرسة الإسماعيلية في مدينة مراغة، وهو لايزال صغيراً، وهناك درس كافة العلوم الفلسفية والتأويلية، ثم انتقل إلى أصفهان، مع زميله فخر الدين الرازي، وجرت بينهما محاورات ومساجلات عديدة، وتلقى في قلعة[1] آلموت كافة العلوم التأويلية والفلسفية. وانخرط في سلك الدعاة الجوالة، وأصبح بعد فترة قصيرة من الدعاة المأذونين بالمكاسرة، والمجادلة في العقائد والديانات والمذاهب وبعدها انتقل إلى بغداد ثم انتقل إلى حلب، وقتل فيها سنة ٥٨٧هـ /١١٩١م.

كان يلقب باسم المؤيد بالملكوت، ويرى أحمد أمين "أنه كان يتبع مذهب المشائين والرواقيين من اليونانيين وكان يتهم بانحلال العقيدة، والتعطيل"[2].

ينقل سامي الكيالي عن ابن خلكان:[3] «كان السهرودي أوحد أهل زمانه في العلوم جامعاً للعلوم الفلسفية بارعاً في الأصول الفقهية مفرط الذكاء فصيح العبارة، وكان علمه أكثر من عقله». كما ينقل الكيالي عن فخر الدين المارديني قوله: «ما أذكى هذا الشاب وأفصحه، لم أجد أحداً مثله في زماني... إلا أنني أخشى عليه لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه، أن يكون ذلك سبباً لتلافه».

ونقلاً عن ابن خلكان في تاريخه كتب بهاء الدين العاملي: «أن شهاب الدين السهروردي المقتول بحلب، كان بارعاً في أصول الفقه، أوحد أهل زمانه في العلوم الفلسفية، وكان يعرف علم السيما»[4].

---

[1] المصادر السابق – ص٣١٦.

[2] حي بن يقظان: ابن سينا وابن طفيل، والسهروردي - تحقيق وتعليق أحمد أمين.

[3] السهروردي – سامي الكيالي – ص٨.

[4] كتاب المخلاة – بهاء الدين العاملي – نسقه وحققه ووضع هوامشه محمد خليل الباشا – بيروت ١٩٨٥ - ص ٥٣٧.

استوعب السهروردي بوعي جيد موضوعة (العالمية) التي يقوم عليها تاريخ الفكر الفلسفي، بمختلف أشكاله وتجلياته، في مختلف بيئاته وازمنته، وإنه بهذا الوعي بنى مذهبه (التصوف الاشراقي) فهو يقول: "إنهم رجال أسرة واحدة وفروع شجرة مباركة، بما فيها من ثمار وخيرات، فامبدوقل وفيثاغورس، وأفلاطون، وأرسطو طاليس، وبوذا وهرمس، ومزدك، وماني، وان انتسبوا إلى شعوب مختلفة هم أبناء الإنسانية أولا، وبالذات رسل السلام والصلاح".[1]

ظهرت المدرسة الاشراقية، في المغرب قبل السهروردي، وتمثلت في مذهب ابن مسرة الذي عاش في قرطبة من سنة ٨٨٣-٩٣١م وقد ذهب فقهاء الأندلس إلى أن ابن مسرة وتلاميذه زنادقة .وتمثلت في المشرق بالسهروردي.

ينطلق السهروردي، في فلسفة الإشراق من الآية القرآنية: "اللّه نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار على نور (سورة النور الآية ٣٢).[2]

برز العالم - حسب السهروردي - من إشراق اللّه وفيضه، وبواسطة هذا الفيض والإشراق تصل النفس المتجردة عن الملذات الجسمية، إلى بهجتها، ويتجلى عليها نور إلهي لا ينقطع مدده. وهذا النور صادر عن كائن تكون منزلته فيها كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الإنساني وهو الواهب لجميع الصور، ومصدر النفوس على اختلافها ويسمى (الروح المقدسة) أو بلغة الفلاسفة (العقل الفعال)[3]

ومن كتابه (هياكل النور) يمكن اجمال آرائه كالآتي[4]: اللّه نور الانوار. ومن نوره تحصل ينابيع أخرى لا حد لها من النور، وهي في اشعاعاتها المتبادلة تتمتع بالنور الاعظم، وهناك مراتب متنوعة من الانوار العلوية، ثم هناك الانوار

---

[1] حكمة الإشراق – السهروردي – طهران ١٨٩٨ – ص ٣٧١.

[2] أصول الفلسفة الإشراقية عند السهروردي – د. محمد علي أبو ريان مصر ١٩٨٧ – ص ٤٨.

[3] حكمة الإشراق – ص ٣٧١.

[4] هياكل النور – ص ٢٨ و٢٩ و٣٢.

المدبرة للأنواع والاجسام، ومن بينها النور المدبر لكل إنسان، ويوجد لكل نوع من المخلوقات والأفلاك سيد خاص به في عالم النور. وهو عقل متميز بذاته مدبر لتلك الأنواع. وفي مقابل منابع النور هناك البرازخ وهي المستقرات المظلمة، وهدف الحياة الروحية هو أن يشهد المرء للواحد الأحد، وأن يتوصل في نفسه إلى التوحيد، وهو ما يتحقق آخر الأمر فيما يتوارد على نفسه من لحظات الفناء والبقاء يقول السهروردي: إن الله نور الأنوار، ومصدر جميع الكائنات.

فمن نوره خرجت أنواع أخرى هي عماد العالم المادي والروحي. والعقول المفارقة ليست إلا واحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها.

يقول د. حسين مروة: "كان التصوف يلتزم فكرة العلاقة المباشرة مع الله، رافضاً تدخل (الوسائط) في هذه العلاقة أما في المدرسة الاشراقية فإننا نجده يلتزم تعدد الوسائط، وفيه بلغت ذروة التحول"[1].

السهروردي في حلب:

كتب د. محمد علي أبو ريان: «وكان أكثر الحكام بعد أن زالت الدولة الفاطمية الشيعية يتخوفون من الحركات الباطنية وينشطون في محاربتها وهالهم انتشار الإسماعيلية كمذهب ديني في الشرق فأخذوا يضيقون الخناق على أصحاب الدعاوى الباطنية، ومتفلسفة المتصوفة»[2].

كان للسهروردي مجلس وعظ، في حلب، ويقول ابن خلكان: "وعلى وعظه قبول كثير ونفس مبارك"[3]. وكان السهروردي يبدي احتقاراً شديداً لكل مظاهر السلطان والأبهة الدنيوية. وأخذ الفقهاء يشنون عليه الحملة تلو الحملة، ولم يتركوا نقيصة من النقائص ـ عدا رميه بالالحاد والزندقة ـ إلا الصقوها به، وبعثوا بالعديد من الرسائل لصلاح الدين الايوبي، في مصر، تردد فيها قولهم: "أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته. فبعث صلاح الدين لولده الظاهر في حلب كتاباً.

---

[1] النزعات المادية في الفلسفة العربية – الإسلامية – ج٢ – د. حسين مروة – ص ٢٦٥.

[2] أصول الفلسفة الإشراقية.. – أبو ريان – ص ٢٣.

[3] السهر وردي – سامي الكيالي ص ٩٨.

قال فيه: "إن هذا الشاب السهروردي لابد من قتله ولا سبيل أنه يطلق ولا يبقى بوجه من الوجوه".

عقد الظاهر مجلساً ضم فقهاء حلب لمناظرة السهروردي وفي هذا المجلس وجهوا إليه السؤال الآتي: هل يقدر الله على إرسال نبي جديد؟ فأجاب السهروردي" أن الله على كل شيء قدير. وهنا قالوا له: إن محمداً خاتم النبيين ولا نبي بعده.. وحللوا قتله!

وهنا يختلف الرواة في الطريقة التي قتل بها شهاب الدين فمنهم من يقول إنه مات مخنوقاً، ومنهم من يقول إن الظاهر خيره في الطريقة التي يحب أن يموت فيها، فاختار السهروردي حبسه ومنع الطعام والشراب عنه حتى يموت.. ويقول الكيالي: "ولما كان يوم الجمعة بعد الصلاة في العاشر من ذي الحجة سنة ٥٨٧هـ اخرج شهاب الدين ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه" وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة.[1]

بعث الأمام الخميني في ١٩٨٨/١٢/٣٠ برسالة إلى غور باتشوف، جاء فيها: «وليشرحوا لكم حيث تتضح فيها (الحكمة الإشراقية عند السهروردي) أن كل جسم مادي يحتاج إلى النور المنزه عن الحس وأن إدراك ذات الإنسان الشهودي لحقيقة نفسه لا علاقة له بأية ظاهرة من ظواهر المادة».

آثار السهروردي:

عدد تلميذه الشهرزوري تسعاً واربعين مؤلفاً للسهروردي منها: حكمة الإشراق، هيا كل النور بالفارسية ـ والعربية ـ التلويحات ـ حي بن يقظان..

كان السهرورودي شاعراً فمن شعره:

فز بالنعيم فإن عمرك ينفـــــذ ... وتغنم الدنيا فليس تخلـــــد

وإذا ظفرت بلذة فانهض لهـــــا ... لا يمنعنك عن هواك مفنـــد

وصل الصبوح مع الغبوق فإنما ... دنياك يوم واحدٌ يتـــــــردد

---

[1] المرجع السابق ص ٢٩.

وعـدوك تشـرب في الجنـان مدامـة ولتنـد مـن إذا أتـاك الموعـد
كـم أمـة هلكـت ودار عطلـت ومسـاجد خربـت وعمـر معهـد
ولكـم نـبي قـد أتـى بشـريعة قـدماً وكـم صـلوا لهـا وتعبـدوا

وتحت عنوان: العصفور والقفص، تروى عنه الأبيات الآتية التي قالها في اللحظات الأخيرة من حياته:

قـل لأصـحابي رأونـي ميتـاً فبكـوني إذا رأونـي حزنـاً
لا تظـنن بـأني ميـت لـيس ذا الميـت والله أنـا
أنـا عصـفور وهـذا قفصـي طـرت منـه فتخلـى رهنـاً
وأنـا اليـوم أنـاجي مـلأ وأرى الله عيانـاً بهنـا
فـاخلعوا الأنفـس عـن أجسـادها تـرون الحـق حقـاً بينـا
مـا أرى نفسـي إلا انتمـو واعتقـادي أنكـم أنـتم أنـا

وروى بعض معاصريه أنه حين علم بصدور الحكم بقتله أخذ ينشد:

أرى قـدمي أراق دمـي وهـان دمـي فهـا نـدمي

ومن شعره أيضاً:

حضـروا فغـابوا عـن شـهود ذاوتهـم وتهتكـوا لمـا رأوه وصـاحوا
فتشـبهوا إن لم تكونـوا مثلـهم إن التشـبه بـالكرام فـلاح

من أقوال السهروردي:

❖ ولا تظن أن الحكمة في هذه المدة القريبة كانت لاغية، بل العالم ما خلا قط عن الحكمة وعن شخص قائم بها عنده الحجج والبينات، وهو خليفة الله في أرضه، وهكذا يكون ما دامت السموات والارض والاختلاف بين متقدمي الحكماء ومتأخريهم إنما هو في الالفاظ واختلاف عاداتهم في التصريح والتعريض."[1]

---

[1] السهرودي – مصطفى غالب.

ولا تبذلن العلم واسراره إلا لأهله، واتق شر من أحسنت إليه من اللئام، فلقد أصابتني منهم شدايد.[1]

❖ كل مشتركين في شيء يلزم افتراقهما بشيء آخر[2]

إن قبر السهروردي ملتصق بدار البريد القديمة بحلب وهي اليوم مركز لشرطة قسم باب الفرج، وقد حرفت العامة اسمه فقالت (الساريوردي) بدلاً من السهروردي. كتب أحدهم على القبر:

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة ... مكنونة قد براها الله من شرف
فلم تكن تعرف الأيام قيمته ... فردها غيرةً منه إلى الصدف

ابن عربي:

هو أبو بكر محمد بن عربي الطائي (نسبة إلى قبيلة طيء العربية) ولد في بلدة مرسية بالأندلس سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤م، وتوفي في دمشق سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م، وكان يعرف بابن سراقة. كان أبوه علي بن محمد من أئمة الفقه والحديث، ومن أعلام الزهد والتقوى والتصوف، وكان جده أحد قضاة الأندلس.

نشأ ابن عربي وشب في الأندلس، وعلى الرغم من أن كافة الظروف كانت تهيء الصبي محمد للالتحاق بسلك الحياة العسكرية أو الخدمة في الديوان، إلا أن حياته اتخذت مساراً مختلفاً نحو نهج الإيمان والعرفان، والمعاينة، والكشف، فتعرف على الصوفية، وتأثر ببعض آراء ابن مسرة، وانضوى تحت لوائها، كتب ابن عربي: (دخلت يوماً بقرطبة على قاضيها أبي الوليد محمد بن رشد، وكان يرغب بلقائي، لما سمع وبلغه ما فتح الله به عليَّ في خلوتي. وكان ابن رشد من أصدقاء أبي، وأنا صبي ما بقل وجهي (لم ينبت الشعر في وجهه)، وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي؟[3] ويتابع ابن عربي قائلاً:

---

[1] كتاب التلويحات للسهروردي

[2] المستطرف الجديد – هادي العلوي

[3] الفتوحات المكية – ج١ – ص ١٥٧ و ١٥٤

فما اجتمعت به حتى درج (مات وصعد في الدرجات)، وذلك سنة ٥٩٥هـ بمدينة مراكش، ونقل إلى قرطبة، وبها قبره.

عاشت الأندلس مرحلة ظلامية، حيث أمر الخليفة المنصور بن عامر، بمنع الفلسفة وكتبها، وتحذير الناس منها، ومما جاء في أمره: (كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام (الفلاسفة الأقدمون)، فخلدوا في العالم صحفاً ما لها من خلاق. مسوَّدة المعاني والأوراق، ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين إنس يخادعون الله والذين آمنوا..، وقف بعضهم على كتب مسطورة في الضلال، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال. ظاهرها موشح بكتاب الله، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله..، فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية في الأبدان، ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه،.. والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم). [1]وهكذا فقد أحرقت الكتب العلمية والفلسفية، وحورب المشتغلون بالفلسفة، ونفي الكثير منهم كابن رشد وغيره.

قاد أبو حامد الغزالي حملة إرهاب فكري، في المشرق العربي، وحارب الباطنية والفلاسفة، ومن غريب الأمر أن علي بن يوسف سلطان المغرب يومذاك أمر بإحراق كتب الغزالي لتوهمه اشتمالها على الفلسفة، وتوعد بالقتل من وجدت عنده!

وإضافة إلى الإرهاب الفكري كانت الحرب الضروس تدور بين ملوك الكاثوليك، وبين الأمراء الحكام المسلمين، في الأندلس. كما أن هذه الحروب لم تكن تخلو من صراعات بين الحكام المسلمين أنفسهم.

عفي عن ابن رشد والآخرين سنة ٥٩٤هـ، وبعد سنة من ذلك توفي، في مراكش. كتب ابن عربي: (ولما حمل التابوت الذي فيه جسده جعلت تواليفه (مؤلفات ابن رشد) تعادل من الجانب الآخر، على ظهر الدابة، وأنا واقف ومعي جماعة، فالتفت واحد منا وقال: ألا تنظرون إلى من يعادل الإمام ابن رشد في

---

[1] ابن رشد وفلسفته – تقديم د. طيب تيزيني – ص ٦٩ و٧٠ و٧١.

مركوبه؟ هذا الإمام وهذه أعماله يعني تواليفه! فقال لي ابن جبير: يا ولدي نعم ما نظرت. لا فضَّ فوك! فقيدتها عندي موعظة وتذكرة. رحم الله جميعهم، وما بقي من تلك الجماعة غيري، وقلنا في ذلك:[1]

هـــذا الإمـــامُ وهـــذه أعمالـــه يـا ليـت شـعري هـل أتـت آمالـه؟

◆ المشرق العربي:

انتقل ابن عربي من مرسية إلى إشبيلية سنة ٥٦٨ هـ، فأقام فيها إلى سنة ٥٩٨هـ،ثم رحل إلى المغرب، وتونس، والجزائر، واستقر فترة في فاس، وتوجه إلى مكة، ثم الموصل، ثم مصر، وسافر إلى بلاد الروم، ونزل في قونية، وفيها ألتقى تلميذه صدر الدين القوني، الذي أصبح فيما بعد من أهم شراحه، وحاملي فكره، فانتشرت تعاليم ابن عربي، في شرق العالم الإسلامي، وساح، في الأناضول، ثم أرمينيا، وعاد إلى بغداد، وكان له ببلاد الروم صيت عظيم، وارتحل إلى حلب ثم إلى دمشق، واستقر فيها حتى وفاته. شهد الحروب الصليبية، وكان يحرض المسلمين عليها.

نقمت عليه بعض القوى الظلامية، في مصر، وسعت في إراقة دمه، فتوسط له الشيخ أبو الحسن البجائي، وسعى في خلاصه، وتأول كلامه، ولما وصل إليه بعد خلاصه قال له الشيخ: كيف يحبس من حلَّ منه اللاهوت في الناسوت؟ فقال ابن عربي: «يا سيدي تلك شطحات في محل سكر ولا عتب على سكران».[2]

شغل ابن عربي الناس، ولا زال يشغلهم، فلقب بـ: محيي الدين، والشيخ الأكبر، وسلطان العارفين، وأوصله البعض إلى مرتبة الأولياء، كما قيلت فيه الآراء ا لمتضاربة، فرمي بالزندقة والإلحاد حيناً، ووصفت كتاباته بالغموض والتعقيد، وبأنه يستخدم تعابير غامضة، يصعب إن لم يكن مستحيلاً فهمها، كما أن الغموض يلف شخصيته، وهو يستتر خلف ألف معنى ومعنى!

---

[1] الفتوحات المكية – ج١ – ص ١٥٤.

[2] الفتوحات المكية – ج٤ – ص ٥٦٠.

سئل الفيروز بادي: (ما تقول السادة العلماء شد الله بهم أزر الدين..، في الشيخ محيي الدين بن عربي، وفي كتبه المنسوبة إليها كالفتوحات المكية، والفصوص، والمواقف، هل تحل قراءتها وإقراؤها ومطالعتها؟ أفتونا مأجورين جواباً شافياً لتحوزوا جميل الثواب..، فأجاب: كان شيخ الطريقة حالاً وعلماً، وإمام الحقيقة حقيقة ورسماً، ومحيي رسوم المعارف فعلاً واسماً. وأما كتبه ومصنفاته فالبحور الزواخر، وجواهر لا يعرف لها أول ولا آخر. ما وضع الواضعون مثلها. وإن من واظب على مطالعتها والنظر فيها..، انشرح صدره لحل المشكلات، وفك المعضلات..، وثم طائفة في الغي خائضة يعظمون عليه النكير، وربما بلغ بهم حدُّ الجهل إلى حدِّ التكفير).[1]

وألف الحافظ السيوطي كتاباً سماه (تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي)[2].

يحدثنا الدكتور مصطفى غالب، قائلاً:[3] «تعرف محي الدين بن عربي، على كبار الدعاة الإسماعيلية، وبعد مجادلات ومناقشات أصبح منهم، واعتنق مذهبهم، وسار إلى فارس مع العلامة الإسماعيلي الكبير سنان راشد الدين حيث عرَّجا على (آلموت)، واتصلا بالإمام الإسماعيلي الذي أمرهما أن يتوجها إلى سورية، حيث عُيِّن سنان حجة له، في حلب، ومحيي الدين، في دمشق، واستقر في دمشق يؤلف ويصنف، ويقوم بالمهمة التي أوكلت إليه حتى توفي خلال سنة ٦٣٨هـ».

ابن عربي إذن ليس عضواً عادياً في هذه الحركة (الحزب)، إنما هو حجة للإمام، بمعنى أنه ينوب عن الإمام في عمله، في دور الستر. ومن المعلوم أن هؤلاء النواب هم الذين يرسلون الدعاة لنشر أفكار المذهب الإسماعيلي، في أرجاء العالم الإسلامي.

---

[1] الفتوحات المكية – ج٤ – ص ٥٥٨.

[2] الفتوحات المكية – ج٤ - ص ٥٥٩.

[3] التأثر الحميري الحسن بن الصباح – د. مصطفى غالب – ص ١٠٣.

ولما كانت الأفكار الصوفية تستقطب جماهير واسعة من الناس، فإنه لا يجوز لأية حركة تناضل ضد الظلم، ومن أجل إنجاح مبادئها الابتعاد عن العمل في هذا المجال. كما وجدت الحركة الإسماعيلية ضالتها في شخص محيي الدين فأوكلت إليه العمل لتنفيذ هذه المهمة، فأبدع فيها، وأغناها وبلور مفاهيم جديدة، كوحدة الوجود والإنسان الأكبر.

◆ وحدة الوجود:

تقول الفلسفة المادية الديالكتيكية: إن وحدة العالم قائمة في ماديته، وأن المادة المتحركة هي المنشأ الواحد المشترك لكل ما في هذا العالم.

كتب أحمد أمين[1]: (إن واحدية الوجود التي قال بها ابن عربي وابن الفارض تذهب إلى أنه ليس في العالم وجودان بل وجود واحد فالله هو العالم والعالم هو الله. وإن مظاهر العالم المختلفة ليست سوى مظاهر لله تعالى أي ليس لله وجود إلا الوجود القائم بالمخلوقات وليس هناك غيره ولا سواه).

إن ما قاله أحمد أمين يؤكده ابن عربي، في أبيات من شعره، منها:

فانظر إلى حق اليقين وعينه ... في عالم الأرواح والأبدان
تجد الذي عنه تكوّن سره ... في كل ما يبدو من الأعيان

يستنتج الدكتور حسين مروة، أن فهم ابن عربي لوحدة الوجود، يتجلى على النحو الآتي[2]:

١. ليس في الأمر وجودان: وجود الله ووجود العالم، بل وجود واحد، وحقيقة واحدة، هما وجود الله وحقيقته.

٢. إن صلة الله بالعالم، لا تزيد عن كونها صلة ذاته بأسمائه.

٣. إن الوجود الاعتباري بأسمائه الأولى هو غاية للعالم وللإنسان، بالدرجة الأولى هو غاية الله.. فهو إذن وجود ضروري.

٤. بما أن وجود العالم غاية كي يعرف الله، يعرف هو نفسه في أمر آخر غير

---

[1] ظهر الإسلام – أحمد أمين – ص ١٩٦.

[2] النزعات المادية في الفلسفة العربية – الإسلامية – ج٢ – د. حسين مروة – ص ٢٧٧ و٢٧٨.

نفسه، إنه وجود قديم أزلي. فالعالم إذن غير مخلوق بمعنى الإيجاد من عدم.. فهذه مسلمة لاهوتية تنهار في نظرية ابن عربي (عن وحدة الوجود) كما تنهار المسلمة الأخرى القائلة بحدوث العالم.

٥. أما موقف ابن عربي من قضية الإنسان فهو موقف يرى أن الإنسان هو أصل وجود العالم، ومبدأ صلة العالم مع الله.

ويتابع د. مروة قائلاً:

لا يعترف ابن عربي بالوجود الموضوعي للعالم الخارجي، في حين يعترف تلميذه ملا صدرا الشيرازي صراحة بالوجود الخارجي وجوداً موضوعياً، مع قوله بوجود له حقيقي، أو إرجاعه كلا الوجودين إلى حقيقة واحدة وهوية واحدة. إن موقف ملا صدرا موقف مثالي موضوعي، وموقف ابن عربي مثالي ذاتي. [1]

الإنسان الأكبر:

يعني هذا المصطلح عند ابن عربي: العالم كله. وحين يستعمل اصطلاح (العالم الصغير)، أو (العالم الأصغر) فإنه إنما يعني الإنسان. يقول ابن عربي: (..وآدم هو الكتاب الجامع. فهو للعالم كالروح من الجسد. فالإنسان روح العالم. والعالم الجسد. فبالمجموع يكون العالم كله هو الإنسان الكبير والإنسان فيه وإذا نظرت في العالم وحده دون الإنسان وجدته، كالجسم المسوى بغير روح. وكمال العالم بالإنسان مثل كمال الجسد بالروح. والإنسان منفوخ في جسم العالم فهو المقصود من العالم)[2].

تحدث ابن عربي بالتفصيل، في الفتوحات المكية عن وظيفة الخيال في مجال الكشف العلمي. وهذا الخيال هو الذي يؤدي الوظيفة الكبرى في الكشف عن القوانين وهو العامل الحوهري في الاختراع والابتكار.

---

[1] المصدر السابق – ص ٢٨٩ و ٢٨٧.

[2] الفتوحات المكية – ج٢ – ص ٦٧.

تأثيرات ابن عربي:

لم يقتصر تأثير ابن عربي على العالم العربي ـ الإسلامي، بل تعداه إلى العالم الغربي، ويعتبره د. نصر حامد أبو زيد (همزة الوصل بين التراث الإسلامي والتراث العالمي، نظراً لاستيعابه التراث الإنساني وتوظيفه في إقامة بنائه الفكري الفلسفي الشاهق من جهة، وسعيه لإعادة تشكيل التراث الإنساني بالتأثير فيه تأثراً خلاقاً بنفس الدرجة)*. كتب المستشرق نيكلسون مبيناً تأثير ابن عربي الكبير على الفكر الأوربي: «إن ابن عربي عبقري الإسلام في الأندلس، بدراساته الجريئة في الإلهيات، ومشاهداته الكبرى، في عالم الروح، قد عبّد السبيل أمام اللاهوت المسيحي للنهوض والتحلل من القيود، وله آثاره في بعث الأدب الأوربي أيضاً. فإذا قابلنا بين ما كتبه دانتي مثلاً حينما نظم (الكوميديا الإلهية) وبين ما كتبه ابن عربي، نرى أن دانتي قد تتلمذ على ابن عربي تلمذة واضحة، في النهج والأسلوب والطريقة، بل وفي الصور والأمثال والاصطلاحات، والأساليب الفنية»[1].

لم يقتصر تأثير ابن عربي على هذا الجانب في التصوف، بل امتد بعمق في صياغة الحياة الصوفية كلها، فبتأثير جلال الدين الرومي، في الشرق، وأبي الحسن الشاذلي، في الغرب، تشكلت بتعاليم ابن عربي طريقتان من أكبر الطرق الصوفية هما: المولوية، والطريقة الشاذلية.

وجاء في رسالة آية الله الخميني إلى ميخائيل غورباتشوف: «لا أثقل عليكم هنا فكتب أهل العرفان وبخاصة كتابات محيي الدين بن عربي، كثيرة، إذا أردتم أن تستفيدوا من مباحث هذا الرجل العظيم، فابعثوا عدداً من خبرائكم الأذكياء والضالعين في مثل هذه المعارف إلى مدينة قم، حتى يطلعوا وبعد التوكل على الله بعد أعوام، على عمق منازل المعرفة اللطيفة التي هي أدق من الشعر، لأنه ليس بالإمكان الاطلاع على هذه المعرفة بغير هذا الشكل»[2]

(*) هكذا تكلم ابن عربي – د. نصر حامد أبو زيد – القاهرة ٢٠٠٢.

(1) تاريخ الفلسفة العربية – حنا فاخوري وخليل الجر لبنان ١٩٦٣ ص ٣١٠ -٣١١.

(2) صورة عن رسالة وجهها الإمام الخميني إلى ميخائيل غوربا تشوف الأمين العام السابق للحزب الشيوعي في الإتحاد السوفيتي – مؤرخة في ٢٢ جمادى الأول ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩٨٨/١٢/٣٠.

وبعد: لكي تفهم كتابات الشيخ محيي الدين بن عربي على حقيقتها، فإنه يجب الانطلاق من عدة أمور، منها:

معرفة المصطلحات الصوفية علن نحو عام، ومعرفتها عند ابن عربي على نحو خاص.

معرفة الفلسفة الإسماعيلية، ومصطلحاتها، ويجب ألا يغيب عن البال أن ابن عربي اغتنى بها وأغناها، كما أغناها متصوفة آخرون، وكانوا من الإسماعيلية، كعامر البصري، والسهروردي..

معرفة ظروف العصر الذي عاش فيه ابن عربي، وقد اتصف بالغزو الصليبي، وبامتداد موجة الإرهاب الفكري والمادي ضد الباطنية والفلاسفة، إضافة إلى الصراعات الدموية التي سادت العلاقات بين الدويلات التي نشأت في أطراف عديدة من الإمبراطورية العباسية.

ويرى د. أبو زيد (أن الوسيلة الوحيدة لفهم ابن عربي هي أن يصبح الباحث واحداً من مريديه، ولو لفترة من الزمن، وأن يأخذ عنه، ويتلقى على يديه بالطريقة نفسها التي أخذ بها هو عن مشايخ التصوف في عصره)*.

إن العلاقة بين مبادئ الإسماعيلية ومفاهيم ابن عربي علاقة مترابطة، وفيما يأتي غيض من فيض شواهد على ذلك:

(الإنسان الأكبر أو الكبير، والعالم الصغير) نراه كاصطلاح في رسائل إخوان الصفا.

ـ مصطلحات مشتركة، منها: العقل الأول، الجسم الكلي، النفس الكلية، القلم، العرش.

ـ الاستدلال على الله يستخلص من وجود الموجودات، وقد عبر عنه ابن عربي ببيت الشعر:

تجد الذي عنه تكون سره في كل ما يبدو من الأعيان

(*) هكذا تكلم ابن عربي – د. أبو زيد ٢٠٠٢ - الانترنيت

- يقول ابن عربي في الفتوحات المكية: وهذا الإمام هو الذي علم أصحابه الحد، ثم رجالاً سبعة يقال لهم الأبدال يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة لكل بدل إقليم ثم تكون الإنسان الذي هو آدم في الرتبة السابعة وما كان وجود الإنسان في السنبلة ولها من الزمان في الدلالة سبعة آلاف سنة فوجد الإنسان في المرتبة السابعة فما حمل الأمانة إلا من تحقق بالسبعة وكان هذا هو السابع من الإبدال.

إن الإمام السابع في الدعوة الإسماعيلية يجمع قوى الستة التي قبله، وهو نهاية الدور ويسمى أساس.

- يدرك الإنسان المعلومات كلها بإحدى القوى الخمس، يقول هذا ابن عربي، ووجد معناه في رسائل إخوان ا لصفا، وبعض كتب الإسماعيلية الأخرى.

قال ابن عربي:

لقد كنت قبل النوم أنكر صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني

فقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيتاً لأوثانٍ وكعبة طائفٍ ... وألواح توراة وأوراق قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه أرسلت ديني وإيماني

ألا تشتمل هذه الأبيات على قسم من البرنامج السياسي الذي أشير إليه سابقاً، وتعبر عنه أفضل تعبير؟!

بدأ ابن عربي تأليف الرسائل والكتب تباعاً، وكان مجمل المؤلفات التي ذكرها بنفسه ٢٨٥ مؤلفاً ما بين كتاب كبير الحجم، ورسالة صغيرة. من أهمها كتاب الفتوحات المكية الذي يتضمن موسوعة تكاد تشمل كل فروع الثقافة الإسلامية. وهو من أنضج كتابات الشيخ وأكثرها استيعاباً لفلسفته بعد أن نضجت واستقرت مقولاتها، في نسق موحد.

أورد ابن عربي بعض المسائل في كتاب الفتوحات المكية على نحو، أو آخر، وقال: "ومدار العلم الذي يخص به أهل الله تعالى على سبع مسائل من عرفها لم يعتص عليه شيء من علم الحقائق، وهي معرفة أسماء الله تعالى، ومعرفة التجليات، ومعرفة خطاب الحق بلسان الشرع، ومعرفة كمال الوجود، ومعرفة الإنسان من جهة حقائقه، ومعرفة الكشف الخيالي، ومعرفة العلل والأدوية، وذكرنا هذه المسائل في باب المعرفة من هذا الكتاب، فلتنظر هناك إن شاء الله".

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران ۱۳۷۲

ويتابع في الجزء الثاني من الفتوحات المكية: «وبعد أن تقرر ما ذكرناه فلنقل إن المعرفة في طريقنا عندنا لما نظرنا في ذلك، فوجدناها منحصرة في العلم بسبعة أشياء، وهو ا لطريق الذي سلكت عليه الخاصة من عباد الله» ويعددها كما وردت أعلاه، ولكنه يضيف شرحاً لكل نوع منها.

يصرح ابن عربي أحياناً، ويلجأ إلى الإشارة أحياناً، فحين يتحدث عن عقيدة خاصة في الله تعالى، نراه يقول: "إنه أمر فوق هذا، جعلناه مبدداً في هذا الكتاب. (المعرفة)، لكون أكثر العقول المحجوبة بأفكارها تقصر عن إدراكه لعدم تجردها. ويخاطب القارئ في مكان آخر قائلاً: "إن كنت ذا فطنة أو مأنا إليك ما هو الأمر عليه!"

الأمية عند ابن عربي:

يقول ابن عربي في ص ٦٤٤ من الفتوحات المكية، الجزء الثاني: (الأمية عندنا لا تنافي حفظ القرآن ولا حفظ الأخبارالنبوية ولكن الأمية عندنا من لم يتصرف بنظره الفكري وحكمه العقلي في استخراج ما تحوي عليه من المعاني والأسرار وما تعطيه من الأدلة العقلية).

وقال: «إنه لا يعرف طريقة من طرق الصوفية أو فرقة من الفرق، أو عقيدة من العقائد لم يلق واحد من السالكين فيها أو ممن يعتنقونها ويمارسون طقوسها قولاً وعملاً، وإن كل ما سطره في كتبه فمنه ما شاهده، ومنه ما نقله من كتب مشهورة رواها سماعاً أو قراءة أو مداولة أو كتابة» (تاريخ الفكر الأندلسي - ترجمة حسين مؤنس - مصر ١٩٥٥ - ص ٣٨٠).

وأخيراً فإن ابن عربي عندما يرى أن الحلول التي يضعها لا تجد صدى في الواقع المعايش، فإنه يتجاوزه مكوناً بناءً سياسياً باطنياً روحياً راقياً يعتبره هو العالم الحقيقي ودولة الباطن، ويعتبر أن هذه المعرفة ذوقية حدسية، ينكرها العقل والحس، ولكن المنكرين معذورون لأن حقيقة الوجود تتجلى لهم على قدرهم. وينتهي ابن عربي إلى أن الرحمة الإلهية الشاملة ستنتظم الجميع في نهاية الأمر.

الفصل السابع

الإسماعيليون والمرأة

- موقف القرامطة من المرأة
- ابن عربي والمرأة
- آغا خان والمرأة

موقف القرامطة من المرأة:

أدرك القرامطة دور المرأة وأهميته، فهي نصف المجتمع، لذا فقد ركزوا أثناء دعوتهم على المرأة، فكانت تدفع اشتراكها الذي كان يساوي (خمس ما تغزله)[1]. وبعد استلام الحكم في البحرين أصبحت تشارك (في العمل والإنتاج)[2]. واستمر السماح لها بالدخول، في سلك الدعوة، والتدرج في مراتبها.

ومن القوانين المتعلقة بالمرأة، والتي سنها أبو سعيد، الآتي:

- تحديد الزواج بواحدة فقط، وإلغاء المهر، وحق المرأة بالطلاق.
- حق المرأة بالعمل، وحقها بالتعليم.
- حقها برفض الزواج بتاتاً.
- إعفاؤها من الأعمال الشاقة، ويفسر الدكتور الدوري قيام الدولة ببناء المطاحن، على أنها (تخفيف لأعباء النساء).
- كانت دور التعليم مختلطة.
- أحدثت الدولة يوماً معلوماً للزواج.

وضع المرأة في الدولة الفاطمية:

عهد المستنصر (الخليفة الثامن) ت سنة ٤٨٧هـ ١٠٩٤م إلى السيدة أروى الحرة تنظيم الدعوة الإسماعيلية، في الهند، وفي عمان، وأن تعين من قبلها دعاة ينشرون الدعوة في هذه البلاد.

انقسمت الحركة الإسماعيلية بعد وفاة المستنصر، إلى مستعلية ونزارية. أيدت السيدة الحرة، الخليفة المستعلي وحال هذا التأييد دون تسرب الدعوة النزارية إلى بلاد اليمن مدة من الوقت. ولدت السيدة الحرة أروى سنة ٤٤٠ هـ وتوفيت في سنة ٥٣٢ هـ.

ابن عربي والمرأة:

يتحدث ابن عربي عن عورة المرأة والرجل، وعن إمامة كل منهما في الصلاة، فيقول: (فمن قائل إن المرأة كلها عورة ما خلا الوجه والكفين، ومن قائل بذلك وزاد أن قدميها ليستا بعورة ومن قائل إنها كلها عورة وأما مذهبنا فليست العورة في المرأة أيضاً إلا السوأتين كما قال تعالى: (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة)، فسوى بين آدم وحواء في ستر السوأتين وهما العورتان.

إمامة المرأة في الصلاة:

(فمن الناس من أجاز إمامة المرأة على الإطلاق بالرجال والنساء وبه أقول ومنهم من منع إمامتها على الإطلاق)

آغا خان والمرآة:

أصدر آغا خان الثالث في منتصف القرن الماضي، توجيهاته إلى المرآة الإسماعيلية، في سورية، جاء فيها : (إن الحجاب يتعارض والعقائد الإسماعيلية، وإني أهيب بكل إسماعيلية أن تنزع نقابها، وتنزل إلى معترك الحياة لتساهم مساهمة فعالة، في بناء الهيكل الاجتماعي والديني للطائفة الإسماعيلية خاصة، وللعالم الإسلامي عامة، وأن تعمل جنباً إلى جنب مع الرجل، في مختلف ميادين الحياة أسوة بجميع النساء الإسماعيليات في العالم)

ومن نصائحه أيضاً: «اعتنوا أيها الإسماعيليون اعتناءاً تاماً في تهذيب بناتكم. إن تعليم البنات أهم وأعظم من تعليم البنين. أهيب بكم واحثكم على تعليمهن وتهذيبهم وتدريبهن على الأعمال الرياضية والصحية، واخرجوا بهن إلى الهواء الطلق، أنا أبوكم الروحي أبارك بناتكن، فعلموهن حتى يبلغن الرابعة عشر من عمرهن إذا استحال عليكم أن يكملوا علومهن»

الفصل الثامن

علماء & فلاسفة

- ابن سينا
- أبو حنيفة النعمان المغربي
- ابن الهيثم
- حميد الدين الكرماني
- أبو حاتم الرازي
- أبو عبد الله النسفي
- جعفر بن منصور اليمني
- أبو يعقوب السجزي
- نصير الدين الطوسي
- هبة الله الشيرازي

ابن سينا:

لقب بالشيخ الرئيس، والمعلم الثالث، بعد أرسطو والفارابي، كما عرف بأمير الأطباء، وأرسطو الإسلام. كان عالماً وفيلسوفاً وطبيباً وشاعراً. إنه الحسين بن علي ولد سنة ٣٧٠ هـ/ ٩٨٠م، في قرية (أفشنه) من قرى بخارى، ونشأ نشأته الأولى، في بلدة (خرمثين) التابعة لبخارى، إذ كان والده عبد الله بن سينا يتولى إدارتها من قبل الأمير الساماني نوح بن منصور، وتوفي ابن سينا سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م.

تعرف ابن سينا، في حداثته على الفلسفة الإسماعيلية، والتي كانت مصدراً من مصادر تكوينه. قال ابن سينا، وهو يملي سيرة نشأته على تلميذه البوزجاني: (وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين (الفاطميين)، وكذلك أخي. وكانا ربما تذاكرا، وأنا أسمع منهما، وأدرك ما يقولانه، وابتدآ يدعوانني أيضاً إليه).[1]

وهكذا فقد نشأ ابن سينا وترعرع، في بيت عريق، في الإسماعيلية، وكانت بخارى مركزاً من مراكز دعوتها، ومباحثها الفلسفية، فتفتح عقله على المناقشات الفلسفية، والبحوث الدينية، في النفس والعقل، والأسرار الربوبية والنبوة..، وفي مدينة بخارى تلقى العلوم على أساتذة خصوصيين، في منزل والده، ثم على نفسه، وبجهده الشخصي.

عاشت البلدان العربية – الإسلامية، في عصر ابن سينا مرحلة بلغت درجة خطيرة من ا لانقسام والتفكك، فقد عاصر ثلاث (خلافات) إسلامية، في وقت واحد هي : الخلافة العباسية، في المشرق، والخلافة الفاطمية، في مصر والمغرب، والخلافة الأموية، في الأندلس، وعاصر عدا هذه المؤسسات الخلافية، بضع دولٍ إسلامية ترتبط ارتباطاً شكلياً بالخلافة العباسية، منها: الدولة السامانية وعاصمتها بخارى في سنوات ٢٦١ - ٣٨٩ هـ/ ٨٧٤ – ٩٩٨م، ودولة بني بوية، في فارس والري وهمدان وأصبهان والعراق (٣٢٠ - ٤٤٧ هـ/ ٩٣٢

---

[1] القفطي: أخبار الحكماء ص ٢٩٦.

- ١٠٥٥م)، والدولة الغزنوية وعاصمتها غزنة، في أفغانستان (٣٥١ - ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ - ١١٨٦م).

وبغض النظر عن تلك الانقسامات، فإن الثقافة العربية - الإسلامية قد توحدت، وأصبحت ذات مراكز مزدهرة في عصر ابن سينا، خارج مركزها الأصلي بغداد.

وهكذا فقد جمع ابن سينا، في شخصيته، وفي اهتماماته المعرفية، وفي مسيرة حياته كلها، جوانب ليست متعددة ومتنوعة وحسب، بل متناقضة كذلك.

كان ابن سينا يحب الحياة بشغف، فلم يدع من متعها إلا نال منها نصيباً موفوراً سواء كانت حسية أم عقلية. كما أشبع طموحه إلى المنصب السياسي، والمكانة الاجتماعية البارزة.

ابن سينا الفيلسوف:

كان الفكر السياسي العربي – الإسلامي كله محكوماً بالدين الإسلامي كإيديولوجيا رسمية للسلطات الحاكمة، وبالتالي فإن أي موقف إيديولوجي خارج الموقف الرسمي يُعد مناقضاً للإيديولوجيا الرسمية ومعارضاً لها، وبالتالي سيتعرض للملاحقة والاضطهاد. ولما كانت النظرية الإسماعيلية تشير إلى ميل مادي بشأن نظرية الحركة، فلنا أن نقول[1]: (أن تفسير الإسماعيلية للعالم، وإن تشكل بشكل ميتافيزيقي) نجد له منطلقاً مادياً يبرز، في:

١- الاعتراف بالوجود الموضوعي للعالم المادي.

٢- الاعتراف بالحركة كمبدأ لوجوده.

٣- إن المنطلق المادي يمكن أن نجد له أساساً أيضاً في النظر إلى الحركة كمبدأ شامل لمختلف أشكال الوجود المادي، أو كمبدأ لوجود العالم.. ومن الواضح أن (الرؤيا) المادية للحركة.. مغلفة بنظرة مثالية غائية). وفي مكان آخر

---

[1] النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية – ج٢ - د. حسين مروة – ص ٢٣٣

يقول د.مروة[1]: (لا يمكن النظر لابن سينا فيلسوفاً مادياً صافياً، لأن الجوانب المثالية في منظومته ليست هامشية.. ولكن يمكن الحكم بأن الاتجاه العام عنده مادي، وإن منطلقاته المركزية مادية).

إن الميول المادية عند ابن سينا تبدو أكثر أصالة، في مجموع فلسفته، من مواقفه المثالية. وقد أخضع القياس المنطقي للتجربة والاستقراء. كما أخضع التجربة للقياس المنطقي.

ويمكن القول إن اضطراباً بين موقفين حصل عند ابن سينا: موقف مادي متمكن من تفكيره ضاغط عليه لا يستطيع التحول عنه، وموقف مثالي يفرضه عليه المنطق الداخلي لفلسفة عصره.

إن عنصري الإدراك العملي والنظري قد تأسسا عند ابن سينا على قاعدة مادية، أي على قوى الحياة العضوية، في جسم الإنسان، فهو يقول: (إنا نعلم يقيناً أن لنا قوة نعقل بها الأشياء)[2].

يقول الغزالي (ت ٥٠٥ هـ): (وجعلت الروح وسط جسم الإنسان وهي تغيب بالنوم وتطلع باليقظة، ونفس الإنسان تشابه القمر من حيث أن القمر يستمد من الشمس ونفسه تستمد من الروح). أما ابن سينا، فيقول[3]: (إن النفس الإنسانية هي كمال أول لجسم طبيعي آلي من جهة ما يفعل الأفعال الكائنة بالاختيار الفكري والاستنباط بالرأي، ومن جهة ما يدرك الأمور الكلية).

يردد ابن سينا كلام المتصوفة من أن الشريعة (ضرورة للعامة من الناس. أما الخاصة (يقصد الفلاسفة) فليس عليهم إلا أن يروضوا أنفسهم على عدم الاستجابة لنزعات الجسد، وإن يبعدوها عن الهيئات البدنية المضادة لأسباب السعادة) [4]

---

[1] المصدر السابق – ٧٠٢.

[2] النجاة – ابن سينا – ص ٢٤٤.

[3] النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية – ج٢ - د. حسن مروة – ص ٥٦٨.

[4] النجاة – ابن سينا – ص ٣٠٣ – ٣٠٨.

ويربط ماسينيون بين اشراقية ابن سينا وتصوف الحلاج.

أفرد ابن سينا، في مؤلفاته العلمية مكاناً مرموقاً لتفسير الرؤى النبوية والهلوسة والتهيؤات، والاتصال، والتكهن (التنبؤ) تفسيراً علمياً طبيعياً، فكتب يقول[1]: (فإذا سمعت عن هذه الظواهر، فلا تنكرها، لأن عللها قد تكون كامنة، في أسرار الطبيعة..، / وإذا تناهى إلى علمك أن متصوفاً حرك شيئاً بقوته عجز شخص آخر عن تحريكه، فلا تعجل في نقض ذلك، فقد يكون بإمكانك أن تكشف العلة من فهمك قوانين الطبيعة).

ارتحل ابن سينا تهرباً من بلاط السلطان محمود الغزنوي الذي كان معادياً للإسماعيلية والشيعة والمعتزلة والقرامطة. ولعل هذا الموقف وأمثاله، من مواقف ابن سينا هو الذي بنى عليه دي بور، قوله [2]: (بأن ابن سينا لم يطاطئ رأسه لأمير).

ينقل الجابري قولاً لابن سينا[3]: (بلينا برفقة منهم عاري الفهم كأنهم خشب مسندة، يرون التعمق في النظر بدعة، ومخالفة الجمهور ضلالة، كأنهم الحنابلة في كتب الحديث).

كتب سالم حميش[4]: (وأما الأعداء المخالفون للسنة، فيجب أن يُسن مقاتلتهم وإفناؤهم، بعد أن يدعوا إلى الحق، وأن تباح أموالهم وفروجهم).

أثارت شهرة ابن سينا ومكانته العلمية الظلاميين، ووجدوا في نزعته العقلية وآرائه الجديدة، في الطب والفلسفة والعلوم مدخلاً للطعن عليه، واتهامه بالإلحاد والزندقة. وكان يرد عليهم، بقوله: (إيماني بالله لا يتزعزع، فلو كنت كافراً فليس ثمة مسلم حقيقي واحد على ظهر الأرض) فحورب كغيره من متنوري

---

[1] التراث الفلسفي الإسلامي في أبحاث سوفينية - جماعة من الباحثين السوفييت – دار الفارابي – لبنان ١٩٨٧ – ص ٣١.

[2] دي بور – ص ٢٤٧.

[3] نحن والتراث - قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي – د. محمد عابد الجابري – بيروت ١٩٨٠ - ص ١٢١.

[4] مجلة الفكر العربي المعاصر – العدد ٤٧ – خريف – ١٩٨٧ – ص ٧٨.

عصره، ويبدو أن هذه الحرب لما تنته، فقد كتب محي الدين البغدادي: (رأيت النبي في المنام، فقلت له ما تقول في ابن سينا؟ فقال النبي: هو رجل أراد أن يصل إلى الله بلا واسطتي، فحجبته بيدي هكذا فسقط في النار[1]). أما محمد عابد الجابري، فكتب: (لقد كرس ابن سينا بفلسفته المشرقية اتجاهاً روحانياً غنوصياً كان له ابعد الأثر في ردة الفكر العربي الإسلامي، وارتداده من عقلانيته المنفتحة إلى لا عقلانية ظلامية قاتلة لم يعمل الغزالي والسهروردي الحلبي وأمثالهما إلا على نشرها وتعميمها في مختلف الأوساط)[2]

يرى سيد حسن نصر أن فلسفة ابن سينا[3]: (كانت تعبيراً عن إيديولوجية مختلف الفئات الاجتماعية التي تمثل أحد طرفي التناقض الرئيس حينذاك، مقابل الفئة العليا المتميزة الرئيسة الممثلة لسلطة الإقطاعية بخصوصياتها التاريخية المشرقية).

أما الدكتور مروة فيقول[4]: (كان لآراء الكندي تأثير عميق في الفلاسفة المتأخرين عنه كابن سينا، وقد تطورت الأشكال الفلسفية إلى منظومات متناسقة على أيدي الكندي، والفارابي، وأبي بكر الرازي، وابن سينا). ويقول د. مروة: «إن ابن سينا رفض تأثيرات الدعوة الإسماعيلية على فكره[5]».

ابن سينا الطبيب:

ظل كتاب القانون المرجع الأول للطب، وبلغت طبعاته في أوربا أكثر من أربعين طبعة، قال عنه وليم أوسلر: إنه كان الإنجيل الطبي لأطول فترة من الزمن. واستمر يدرس في جامعات إيطاليا وفرنسا وبلجيكا حتى أواسط القرن السابع عشر.

---

[1] الكشكول الكامل - ج١ - بهاء الدين العاملي – ص ٧٣.

[2] نحن والتراث – قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي – د. محمد عابد الجابري – ص٤٦.

[3] ثلاثة حكماء مسلمين – بيروت – دار النهار للنشر والتوزيع ١٩٧١ - ص٢٤.

[4] النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية – ج٢ – ص ٧١٣.

[5] المرجع السابق.

وكانت للأدوية التي ذكرها في مصنفاته، وبخاصة كتاب القانون أثر عظيم وقيمة علمية كبيرة بين علماء الطب والصيدلة، وبلغ عدد الأدوية التي وصفها نحو ٧٦٠ عقاراً رتبها ألفبائياً.

ووضع ابن سينا أسساً وقواعد للتجربة العلمية في مجال اختيار الأدوية وبرع بملاحظاته السريرية، فوصف تقيح التجويف البلوري، وفرق بين المغص المعوي والمغص الكلوي، وبين شلل الوجه الناجم عن سبب مركزي في الدماغ، والناجم عن سبب محلي، وحدد مختلف أنواع اليرقات، ومعالجة القناة الدمعية، وتشخيص الأنكلستوما والرهقان، ومعالجة الديدان المعوية.

ومارس ما يعرف بالطب التجريبي وطبقه على مرضاه، فقد كان يجرب أي دواء يتعرف عليه على الحيوان أولاً، ثم يعطيه للإنسان بعد أن يثبت صلاحيته ودقته على الشفاء. كما تحدث عن تلوث البيئة وأثره على صحة الإنسان.

كان يعالج مرضاه بالمجان، وكثيراً ما كان يقدم لهم الدواء الذي يعده بنفسه.

استطاع ابن سينا أن يقدم للإنسانية أعظم الخدمات بما توصل إليه من اكتشافات، إذ كان أول من كشف عن عدد من الأمراض التي ما زالت منتشرة حتى الآن، فهو أول من اكتشف عن طفيل (الانكلستوما) وسماها الدودة المستديرة، وسبق بذلك الإيطالي بنحو ٩٠٠ سنة، وهو أول من وصف الالتهاب السحائي، وأول من فرق بين الشلل الناجم عن سبب داخلي في الدماغ والشلل الناتج عن سبب خارجي، ووصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، مخالفاً بذلك ما استقر عليه أساطين الطب اليوناني القديم.

كشف لأول مرة عن طريق العدوى لبعض الأمراض المعدية كالجدري والحصبة، وذكرانها تنتقل عن طريق بعض الكائنات الحية الدقيقة في الماء والجو، وقال: إن الماء يحتوي على حيوانات صغيرة جداً لا ترى بالعين المجردة، وهي التي تسبب بعض الأمراض، وهو ما أكده (فان ليو تهوك) في القرن الثامن عشر والعلماء المتأخرون من بعده، بعد اختراع المجهر.

كان سباقاً في دراسة الاضطرابات العصبية والعوامل النفسية والعقلية كالخوف والحزن والقلق والفرح وغيرها، وأشار إلى أنها لها تأثيراً كبيراً في أعضاء الجسم ووظائفها. كما استطاع معرفة الحقائق النفسية والمرضية عن طريق التحليل النفسي، وكان يلجأ أحياناً إلى الأساليب النفسية في معالجة مرضاه.

اتبع ابن سينا في فحص مرضاه وتشخيص المرض وتحديد العلاج طريقة جس النبض والقرع بإصبعه فوق جسم المريض، وهي الطريقة المتبعة حالياً في تشخيص الأمراض الباطنية، والتي نسبت إلى (ليوبولدا ينبرجر) في القرن الثامن عشر وكذلك من خلال الاستدلال بالبول والبراز. وكان رائداً من رواد علم الجراحة.

كان أول من أكتشف ووصف عضلات العين الداخلية، وهو أول من قال بأن مركز البصر ليس في الجسم البلوري، كما كان يعتقد من قبل، وإنما هو العصب البصري.

علم الفلك:

استطاع ابن سينا أن يرصد مرور كوكب الزهرة عبر دائرة قرص الشمس بالعين المجردة في يوم ١٠٣٢/٥/٢٤م، وهو ما أقره الفلكي الإنجليزي (جير ميار وكس) في القرن السابع عشر. واشتغل ابن سينا بالرصد ووضع آلات للرصد لم يسبق إليها، وله في ذلك عدد من المؤلفات القيمة، مثل: كتاب الأرصاد الكلية، رسالة الآلة الرصدية، كتاب الأجرام السماوية، كتاب إبطال أحكام النجوم. وهناك فوهات بأسماء عربية وإسلامية، على سطح القمر، ومنها واحدة باسم ابن سينا، ويبلغ قطرها ٧٤ كيلو متر.

الجيولوجيا:

بحث ابن سينا علم طبقات الأرض (الجيولوجيا) خاصة في المعادن وتكوين الحجارة والجبال، فرأى أنها تكونت من طين لزج خصب على طول الزمان، وتحجر في مدد لا تضبط، فيشبه أن هذه المعمورة كانت في سالف الأيام مغمورة

في البحار، وكثيراً ما يوجد في الأحجار إذا انكسرت أجزاء من الحيوانات المائية كالأصداف وغيرها. كما ذكر الزلازل وفسرها بأنها حركة تعرض لجزء من أجزاء الأرض، بسبب ما تحته، والجسم الذي يتحرك تحت الأرض هو جسم بخاري دخاني قوي الاندفاع أو جسم مائي سيال، أو جسم هوائي أو جسم ناري.

ويرى أن البخار هو مادة السحب والمطر، والثلج، والطل، والجليد، والصقيع، والبَرَد، وعليه تتراءى الهالة وقوس قزح.

الفيزياء:

كان ابن سينا من أوائل العلماء المسلمين الذين مهدوا لعلم الديناميكا الحديثة بدراستهم، في الحركة. وإليه يرجع الفضل في وضع القانون الأول للحركة الذي عبر عنه بقوله: (إنك لتعلم أن الجسم إذا خُلِّيَ وطباعه، ولم يعرض له من خارج تأثير غريب لم يكن له بد من موضع معين وشكل معين، فإذن له في طباعه مبدأ استيجاب ذلك). وهو بذلك سبق اسحق نيوتن بأكثر من ستة قرون، وجاليلو بأكثر من خمسة قرون، وليوناردو دافنشي بأكثر من أربعة قرون.

استطاع ابن سينا أن يفرق بين سرعتي الضوء، والصوت، وهو ما توصل إليه اسحق نيوتن بعد أكثر من ٦٠٠ سنة.

وكانت له نظرياته في (ميكانيكية الحركة) التي توصل إليها جان بيردان، في القرن الرابع عشر للميلاد، وسرعة الحركة التي بنى عليها البرت أنشتين نظريته الشهيرة، في النسبية.

علم النبات:

كان لابن سينا اهتمام خاص بعلم النبات، وله دراسات علمية جادة، في مجال النباتات الطبية. وقد أجرى المقارنات العلمية بين جذور النباتات، وأوراقها، وأزهارها. وتعرض للتربة وأنواعها والعناصر المؤثرة، في نمو النبات، واشار إلى اختلاف الطعام والرائحة، في النبات. وقد سبق كارل متتر الذي قال بأهمية التشخيص بوساطة العصارة وذلك في سنة ١٩٣٤.

ابن سينا الشاعر:

فيما يأتي قصيدة له يتحدث فيها عن النفس:

هَبَطَتْ إليكَ مِنَ المحلِّ الأرفعِ ... وَرْقاءُ ذاتُ تَعَزُّزٍ وتَمنُّعِ

محجوبةٌ عن كلِّ مقلةِ عارفٍ ... وهي التي سَفَرَتْ ولم تَتَبَرْقَعِ

وَصَلَتْ على كُرهٍ إليكَ، وربَّما ... كَرِهَتْ فِراقَكَ وهي ذاتُ تَفجُّعِ

أَنِفَتْ وما أَنِسَتْ، فَلَمَّا وَاصَلَتْ ... أَلِفَتْ مُجَاوَرَةَ الخرابِ البلقَعِ

وأظنُّها نسيتْ عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بفراقِها لَمْ تَقْنَعِ

حتَّى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحمى ... ودنَا الرحيلُ إلى الفضاءِ الأوسعِ

سَجَعَتْ، وقَدْ كُشِفَ الغِطاءُ فأبْصَرتْ ... مَا ليسَ يُدركُ بالعيونِ الدُّعجِ

فلأيِّ شيءٍ أُهبطَتْ من شامخٍ ... سَامٍ إلى حُفَرٍ الحضيضِ الأوضعِ

إن كان أرسَلَهَا الآلهُ لحكمةٍ ... طُوِيَتْ عن الفَطِنِ اللبيبِ الأروعِ

فهبوطها إن كان ضربة لازم ... لتكون سامعة لما لم تسمعِ

وتعود عالمةً بكلِّ خفيةٍ ... في العالمينَ، فَخَرْقُهَا لَم يُرْقَعِ

وهي التي قَطَعَ الزمانُ طَرِيقَهَا ... حتى لَقَدْ غَرُبَتْ بغيرِ المطْلَعِ

فكأنها برقٌ تألقَ بالحمى ... ثم انطوى، فكأنه لَمْ يَلْمَعِ

تقدير الغرب لابن سينا:

قال جورج سارتون: إن ابن سينا ظاهرة فكرية عظيمة ربما لا نجد من يساويه، في ذكائه أو نشاطه الإنتاجي. إن فكر ابن سينا يمثل المثل الأعلى للفلسفة في القرون الوسطى.

كتب دي بور: كان تأثير ابن سينا في الفلسفة المسيحية، في العصور الوسطى عظيم الشأن، واعتبر في المقام الأول كأرسطو.

يقول أوبر فيل: إن ابن سينا اشتهر في العصور الوسطى، وتردد اسمه على

كل شفة ولسان، ولقد كانت قيمته مفكر ملأ عصره.. وكان من كبار عظماء الإنسانية على الإطلاق.

ويصفه هولميارد: إن علماء أوربا يصفون أبا علي بأنه أرسطو طاليس العرب. ولا ريب إنه فاق غيره في علم الطب، وعلم طبقات الأرض. ولا تزال صورة ابن سينا تزين كبرى قاعات الطب بجامعة باريس حتى الآن تقديراً لعلمه، واعترافاً بفضله، وسبقه.

أبو حنيفة النعمان المغربي:

ينتسب أبو حنيفة النعمان بن أبي عبد الله محمد بن منصور بن أحمد بن حيون إلى قبيلة تميم.

عاش في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد)، إذ لا تعرف سنة ولادته، وإن كان هناك من يرجح أنه ولد أواخر القرن الثالث للهجرة، وتوفي بالقاهرة في ٢٩ جمادى الثانية سنة ٣٦٣هـ، ٢٧ آذار سنة ٩٧٣م، وصلى عليه الإمام المعز لدين الله الفاطمي.

يسميه الإسماعيليون سيدنا القاضي النعمان ليميزوا بينه، وبين أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي. ويعرف في تاريخ أدب الدعوة الإسماعيلية بسيدنا قاضي القضاة وداعي الدعاة، النعمان بن محمد، ويطلق عليه ابن خلكان ومؤلفو الشيعة الاثنى عشرية (أبا حنيفة الشيعي).

عاصر أبو حنيفة الفاطميين، واعترف غير مرة أنه دخل، في خدمة عبيد الله الفاطمي سنة ٣١٣هـ /٩٢٠م، وكان مالكي المذهب، ثم انتحل المذهب الإسماعيلي.

يصفه الذهبي بأنه (العلامة المارق، كان مالكياً، فارتد إلى مذهب الباطنية، وصنف له أسس ا لدعوة، ونبذ الدين وراء ظهره، وألف في المناقب والمثالب، وانسلخ عن الإسلام، فسحقاً له).

كان عمله الرئيسي، في أيام المهدي، والقائم، والمنصور مقصوراً، على الجمع والحفظ، ونشر الكتب الخاصة بالمذهب الإسماعيلي، كما تولى

القضاء، في طرابلس (مدينة في ليبيا)، أيام المهدي، والقائم، واتخذه المنصور والمعز قاضياً لهما.

كان القاضي النعمان رجلاً ذا مواهب عديدة، غزير العلم واسع المعرفة، باحثاً محققاً، مكثراً في التأليف، عادلاً في أحكامه.

ويعد النعمان من أهم دعائم الدعوة الإسماعيلية، ويذهب الداعي إدريس عماد الدين إلى أن النعمان كان مشرعاً، وقد أفادت الدعوة الإسماعيلية بكثرة مؤلفاته، في الفقه، وفي المناظرة، والتأويل، والعقائد والسير، والتاريخ، والوعظ، وغير ذلك. ومن الثابت أن النعمان ألفَّ بضعة وأربعين كتاباً، وبقي حتى اليوم نحو عشرين كتاباً، وضاع الباقي. وأهم هذه الكتب هو: كتاب دعائم الإسلام، واسمه الكامل (دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام). ويقع في مجلدين ضخمين، وكان المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي يقرأ كتاب الدعائم، في مجالسه التي كان يلقيها على أبي كارليجار البويهي.

وكان هذا الكتاب هو القانون الرسمي منذ عهد المعز حتى نهاية الدولة الفاطمية، بل لا يزال الكتاب الوحيد الذي يسيطر على حياة طائفة البهرة، في الهند، وعليه المعول في أحوالهم الشخصية. كتب آصف علي فيضي: (ومن عجب أن التشريع الإسلامي بالهند الآن يحافظ على شيء من القوانين التي كانت تطبق في مصر في عهد الفاطميين)، ويعتبره المحقق بأنه (أقوم مصدر لدراسة القانون عند الفاطميين)[1] كتب د. مصطفى غالب[2]: (وأهم كتاب خالد للقاضي النعمان، هو كتاب دعائم الإسلام، وهو الكتاب الذي أمر الإمام الظاهر بأن يحفظه الناس، وجعل لمن يحفظه مالاً جزيلاً، ويشتمل هذا الكتاب على فقه الإسماعيلية كله، فدعائم الإسلام عندهم: الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد).

---

[1] من تقدمة المحقق – السفارة الهندية – السفارة الهندية بالقاهرة -٦ آب ١٩٥١ - المنارة للطباعة والنشر – بيروت.

[2] أعلام الإسماعيلية – ص٥٩٤.

وقد بقي للنعمان كتاب (أساس التأويل). وكتاب (دعائم التأويل).

ويعد كتاب (المجالس والمسايرات) خير ما ألف في وصف حياة الخلفاء الفاطميين، في الدور المغربي، فقد تناول فيه مؤلفه حياة الخلفاء الأربعة، وهم: المهدي، والقائم، والمنصور، والمعز بخاصة. وقد تعرض النعمان لاستقصاء أحكام الأئمة من أهل البيت، مثل جعفر الصادق، وأبيه محمد الباقر، وجدهما علي بن أبي طالب، إلى غير ذلك، هذا إلى تصديه للرد على خصوم المذهب الإسماعيلي.

أما من الناحية المذهبية، فإن كتاب المجالس والمسايرات يعد من أهم كتب الدعوة الإسماعيلية، وقد عده أنصار المذهب من أهم مراجعهم الدينية.

وصفوة القول: إن هذا الكتاب مرآة صادقة للأدب الإسماعيلي، والعقائد الإسماعيلية، ولا يستغني عنه الباحثون في تاريخ الفاطميين، في الدور المغربي بوجه عام، وفي عهد المعز بوجه خاص.

وتحدث النعمان أكثر من مرة عن علاقة المعز بالدولة البيزنطية، وكيف أن الناصر حاكم الأندلس كان يعتمد على الروم ويتحالف معهم، في صراعه مع الفاطميين. كما صور لنا الضربات الموجعة التي كانت تلحقها أساطيل المعز بالروم، وذكر الرسائل التي بعث بها أباطرة الدولة البيزنطية لاستدرار عطف المعز ومهادنته.

ابن الهيثم:

هو أبو علي بن الهيثم البصري، ولد في البصرة سنة ٣٥٤هـ على الأرجح، وتوفي في مصر عام ٤٣٠هـ / ١٠٣٩م.

رحل إلى الشام وعاش في كنف أمير من أمرائها، فأغدق عليه المنح والعطايا، ولكن ابن الهيثم قال للأمير: (يكفيني قوت يومي وتكفيني جارية وخادم).

وقيل إنه اتصل بداعي دعاة الإسماعيلية، في الشام، ويعد مناقشات ومجادلات بينهما على ضوء المعتقدات الإسماعيلية (اقتنع ابن الهيثم فأعلن

اعتناقه المذهب الإسماعيلي)[1].

أن ابن الهيثم هو كبير علماء الطبيعيات المسلمين، والأخصائي في علم البصريات..

ولا تقل المصنفات المنسوبة إليه، في الرياضيات، والفلك، والفلسفة، والطب عن المئة. وثمة فوهة على سطح القمر تسمى بإسمه AL hazen ويبلغ قطرها ٣٢ كيلو متراً.

سد أسوان:

شغل نهر النيل بفيضاناته المصريين قديماً، وحديثاً، وحاولوا الحد من ثوراته، فقدموا له القرابين من أجمل الحسناوات ولكن دون جدوى، وأخيراً وبفضل التعاون المصري – السوفيتي شيد سد أسوان، فانتظم جريان النهر، وأنيرت عشرات المدن وآلاف القرى من الكهرباء المتولدة من العنفات المقامة عليه.

ويبدو أن ابن الهيثم أدرك إمكانية بناء سد على النيل، وأكثر من ذلك، فقد حدد المكان المناسب له. جاء في كتاب (أخبار الحكماء) للقفطي على لسان ابن الهيثم: (لو كنت بمصر لعملت بنيلها عملاً يحصل النفع في كل حالة من حالته من زيادة ونقصان). فوصل قوله هذا إلى صاحب مصر، الحاكم بأمر بالله الفاطمي، فأرسل إليه بعض الأموال سراً، وطلب منه الحضور إلى مصر. فلبى ابن الهيثم الطلب وارتحل إلى مصر حيث كلفه الحاكم بأمر الله إنجاز ما وعد به. فباشر ابن الهيثم دراسة النهر على طول مجراه، ولما وصل إلى قرب أسوان حيث تتحدر مياه النيل منه، فتفحصه في جوانبه كافة، أدرك أنه كان واهماً متسرعاً في ما أدعى المقدرة عليه، وأنه عاجز على البر بوعده. حينئذ عاد إلى الحاكم معتذراً، فقبل عذره وولاه أحد المناصب. غير أن ابن الهيثم ظن رضى الحاكم تظاهراً بالرضى، فخشي أن يكيد له، وتظاهر بالجنون حتى وفاة الحاكم بأمر الله..، ثم خرج من داره، وسكن قبة على باب الجامع الأزهر،

---

[1] أعلام الإسماعيلية – مصطفى غالب – ص٤٥٥ -٤٥٦.

وطوى ما تبقى من حياته مؤلفاً ومحققاً وباحثاً في حقول العلم فكانت له إنجازات هائلة.

وصفه ابن أبي أصيبعة [1]: (بأنه كان فاضل النفس، قوي الذكاء متفنناً في العلوم. لم يماثله أحد من زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه.. وكان دائم الاشتغال كثير التصانيف وافر الزهد محباً للخير. وقد لخص كثيراً من كتب أرسطاطاليس وشرحها، وكذلك لخص كثيراً من كتب جالينوس في الطب، وكان خبيراً بأصول صناعة الطب وقوانينها وأمورها الكلية، إلا أنه لم يباشر أعمالها).

البصريات:

يرى البعض أن ابن الهيثم ترك مؤلفات في الإلهيات، إلا أن أهم الكتب التي اشتهر بها هو (كتاب المناظر)، الذي فقد نصه العربي[2]، ولكنه ترجم في أيام جراراد الكرموني، وطبع في اللاتينية سنة ١٥٧٢م.

كان كتاب المناظر ثورة في عالم البصريات، فابن الهيثم لم يتناول نظريات بطليموس ليشرحها ويجري عليها بعض التعديل، بل إنه رفض عدداً من نظرياته في عالم الضوء، بعدما توصل إلى نظريات جديدة غدت نواة علم البصريات الحديث.

زعم بطليموس أن الرؤية تتم بواسطة أشعة تنبعث من العين إلى الجسم المرئي، وقد تبنى العلماء اللاحقون هذه النظرية. ولما جاء ابن الهيثم نسف هذه النظرية. فبين أن الرؤية تتم بواسطة الأشعة التي تنبعث من الجسم المرئي باتجاه عين المبصر. فبعد سلسلة من اختبارات أجراها ابن الهيثم بين أن الشعاع الضوئي ينتشر في خط مستقيم ضمن وسط متجانس.

اكتشف ابن الهيثم ظاهرة انعطاف الضوء أي انحراف الصورة عن مكانها حال مرور الأشعة الضوئية في وسط معين إلى وسط غير متجانس معه. كما

---

[1] عيون الأنباء في طبقات الأطباء – ج٢ – ص٩٠.

[2] تاريخ الدولة الفاطمية –د. حسن إبراهيم حسن – ص ٥٠٨.

اكتشف أن الانعطاف يكون معدوماً إذا مرت الأشعة الضوئية وفقاً لزاوية قائمة من وسط إلى وسط آخر غير متجانس معه.

إن أهم منجزات ابن الهيثم أنه شرَّح العين تشريحاً كاملاً، وبين وظيفة كل قسم منها. ووضع بحوثاً في ما يتعلق بتكبير العدسات، وبذلك مهد لاستعمال العدسات المتنوعة في معالجة عيوب العين.

آلة التصوير:

يقول ابن الهيثم[1]: (إذا جعلنا في بيت مظلم فتحة في مواجهة ضوء ذاتي أو جعلناها مطلقة لضوء النهار، فإن الضوء يدخل من تلك الفتحة إلى بقعة مقابلة لها على جدار البيت أو على أرضه، ويبقى كل ما حول هذه البقعة غير مستضيئ. (وهذا دليل على أن امتداد الضوء يكون على سموت خطوط مستقيمة. وذلك أيضاً هو الأساس الذي تقوم عليه الخزانة المظلمة ذات الثقب أو آلة التصوير).

وصف العلامة مصطفى نظيف، ابن الهيثم بأنه[2]: (يأتي في مقدمة علماء الطبيعية النظرية لما وضع من ظواهر الضوء..، وإن أثره في هذا العلم لا يقل عن أثر نيوتن في علم الميكانيك).

برهن ابن الهيثم على أن انكسار الضوء في الهواء يجعل الشمس تظل مرئية عندما تكون في الحقيقة وراء الأفق. وتعرف هذه الظاهرة بالفجر والشفق وقد فسرها ابن الهيثم كالآتي: إذا قاربت الشمس الطلوع بدا فيها عامود من نور وراء الأفق الشرقي (هذا العامود يكون في الحقيقة مخروطاً)، ويحاول الضوء من هذا المخروط أن ينفذ من خلال الهواء المعترض بين الأفق وبين عين الناظر بعيداً عن الأفق. وينعطف (ينكسر) الضوء في الهواء ويبدو ضعيفاً على الأرض، وعلى الأشياء القائمة على الأرض. ثم كلما ارتفعت الشمس وراء الأفق مال جسم المخروط إلى الغرب فكثر الضوء الواقع على الأرض، وما عليها، وزاد الضوء

---

[1] حميد موراني، وعبد الحليم منتصر: قراءات في تاريخ العلوم عند العرب ص ٣٩٦، ٣٩٧.

[2] المصدر السابق – ص١٢٧ و١٢٨.

فيها إلى أن تشرق الشمس ويعم الضوء الأرض، ويحدث النهار وبمثل ذلك يحدث الشفق عند مغيب الشمس ولكن على ترتيب معكوس)[1]. وذهب أندريس إلى أن روجر بيكون استقى مادة مؤلفه عن العدسات من الكتاب السابع من (بصريات) ابن الهيثم.*

حميد الدين الكرماني:

(ت ٤٠٨ أو ٤١٠هـ / ١٠١٩م) وفي رواية ت ٤١١هـ / ١٠٢٠م

حميد الدين بن أحمد بن عبد الله الكرماني وهو من فلاسفة الإسماعيلين، كان كبير الدعاة الإسماعيلية بجزيرة العراق ويلقب بحجة العراقيين. وكان من دعاة الفاطميين في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله، وقد وصل إلى القاهرة سنة ٤٠٨هـ.

ترك الكرماني طائفة من المؤلفات، عرض فيها الكثير من المشكلات الفلسفية، ومزج تعاليم الإسماعيلية بعلوم الشريعة والمعارف الفلسفية الأخرى، مما يشهد برسوخ قدمه، وعلو كعبه، في العلم، وتضلعه في فقه الدعوة.

ومن أشهر كتبه التي تدل على تبحره، في الفلسفة وإحاطته بشاردها، وواردها: كتاب راحة العقل، الذي لا ينقسم إلى أبواب ومقالات، وإنما ينقسم إلى أسوار، ويشمل كل سور عدة مشارع، ويصبح الكتاب كأنه مدنية.

إن الفاحص لهذا الكتاب، يتبين بوضوح أن مؤلفه لم يهدف إلى دراسة المذهب الإسماعيلي فحسب، بل إنه عرض الكثير من المشكلات التي تدور عليها مباحث المتكلمين، ومناهجهم، وكذا مناهج الفلاسفة ومذاهبهم. فلا عجب إذا (عد الكرماني بحق شيخ فلاسفة الإسماعيلية، إذ استطاع أن يوفق بين آراء أبي حاتم الرازي وأبي يعقوب الجستاني أستاذ الكرماني)[2]هـ

---

[1] تاريخ العلوم عند العرب – عمر فروخ – ص٣٩٤.

[*] تاريخ الفكر الأندلسي – ترجمة حسين مؤنس – ص ٥٣٤.

[2] تاريخ الدولة الفاطمية – د. حسن إبراهيم حسن – ص٤٩٠.

أبو حاتم الرازي:

(ت ٣٢٢هـ / ٩٣٣م) أو (٣٣١هـ / ٩٤٢م).

يسميه الإسماعيليون سيدنا أبا حاتم عبد الرحمن الرازي الورساني. وكان داعي الإسماعيلية في بلاد الري، ويمثل نشاط الدعوة الفاطمية، في عهد إمامة عبيد الله المهدي، في شمال افريقيا، واستغل رواج هذه الدعوة في بلاد فارس منذ أيام عبد الله بن ميمون القداح، فدخل كثير من أهل هذه البلاد في المذهب الإسماعيلي.

وكان أبو حاتم من كبار دعاة الإسماعيلية، في طبرستان واذربيجان في القرن الرابع الهجري. وقام بدور عظيم في الشؤون السياسية، في طبرستان والديلم، ولا سيما في أصفهان والري، حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة مثل أسفار بن شيرويه، ومراديج بن زيار وغيرهما.

يرميه البعض بكثير من التهم، كالقول أنه باطني زنديق، ويرميه آخرون باعتناق مبادئ الثنوية والدهرية[1]، الذين يقولون بأن العالم لا نهاية له. وهذه الاتهامات لا تقلل من أهمية أبي حاتم، فقد كان علماً من أعلام النهضة العلمية الإسلامية في القرن الرابع للهجرة.

ومن أهم مؤلفات أبي حاتم: كتاب (الزينة)، وقد أهداه إلى الخليفة القائم الفاطمي، وتناول فيه الأمور الفقهية، وفلسفة ما وراء الطبيعة، وبعض موضوعات أخرى كالفرق الدينية، والمعلومات الجغرافية القيمة.

ومن مؤلفاته أيضاً كتاب (أعلام النبوة)، وهو مرجع هام في فلسفة المذهب الإسماعيلي. إذ يتحدث عن نظريات الإسماعيلية في الرسل، وفي الله تعالى، وفي النفس والهيولي والزمان والمكان، وغيرها.

---

[1] الفرق بين الفرق – عبد القاهر البغدادي – ص٢٧٦.

أبو عبد الله النسفي (ت٣٣١هـ):

تتلمذ على الداعي الأمير الحسين بن علي المروروزي، داعي خراسان، ونهج النسفي نهج استاذه المروروزي في التقرب إلى أمراء عصره، وإلى كبار القواد في حكومة نصر بن أحمد الساماني..، واستطاع أن يجذب إلى الإسماعيلية كثيرين من أهالي خراسان، ولم يكتف بما أحرز من نجاح في هذه السبيل، بل عبر نهر حيجون واتجه إلى بخارى، حيث نجح نجاحاً هائلاً.

فاق النسفي، من الناحية العلمية، كثيراً من الدعاة العلماء، ولا غرو فقد ذاعت شهرته في عالم الأدب، وفي فلسفة المذهب الإسماعيلي، كما كان من أحرار الرأي في خراسان. ومن أشهر مؤلفاته كتاب (المحصول)، وقد جاء فيه على ما ذكره البغدادي[1]: (إن المبدع الأول أبدع النفس، ثم أن الأول والثاني مدبر العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع). ويرى البغدادي: (أن هذا التحقيق معنى قول المجوس: إن اليزدان خلق أهرمن، وإنه مع أهرمن مدبران للعالم، غير أن اليزدان فاعل الخيرات، وأهرمن فاعل الشرور).

جعفر بن منصور اليمن:

اشتهر جعفر بن منصور (بن حوشب) بحب الفاطميين منذ نعومة أظافره. غادر جعفر بلاد اليمن، قاصداً المغرب في سنة ٣٢٢هـ/٩٣٣م. وتمتع جعفر بمركز رفيع في الدولة الفاطمية، في المغرب ثم مصر. وكان موضع تقدير القائم والمنصور، كما نال تقدير المعز.

ومن أهم كتبه كتاب (أسرار النطقاء)، وهو من كتب المناظرات الإسماعيلية القيمة. كما يعد من كتب التأويل وكتب التاريخ التي توضح للقارئ شيئاً غير قليل من تاريخ كبار أئمة الإسماعيلية الأوائل.

---

[1] الفرق بين الفرق – ص ٢٧٨ - عبد القار البغدادي.

أبو يعقوب السجزي (ت ٣٣١ هـ):

إنه اسحاق بن أحمد السجزي، والجستاني، ويلقب بدندان، وكان من كبار الدعاة، كما كان اليد اليمنى للداعي النسفي. قيل أنه ولد سنة ٢٧١هـ، ونشأ وترعرع في مدارس الدعوة الإسماعيلية في اليمن.

ولأبي يعقوب مؤلفات كثيرة كان لها أثر كبير في نهضة الفكر الإسلامي في ذلك الحين بوجه عام، وفي نهضة فلسفة المذهب الإسماعيلي بوجه خاص. وقد ذكر البغدادي[1] بعض هذه المؤلفات، فقال: (وصنف لهم أبو يعقوب السجزي كتاب أساس الدعوة، وكتاب الشرائع، وكتاب كشف الأسرار).

نصير الدين الطوسي:

هو أبن جعفر محمد بن الحسن الطوسي نسبة إلى مدينة طوس, وهي من توابع مدينة قم في خراسان . ولد في طوس سنة ٥٩٧هـ /١٢٠٠م وتوفي في بغداد سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م, وكان حسن الصورة سمحاً كريماً جواداً حليماً حسن العشرة غزير الفضائل جليل القدر داهية .

كتب ابن كثير : كان يقال له المولى نصير الدين, اشتغل في شبيبته وحصل علم الأوائل جيداً, ووزر لأصحاب قلاع الموت من الإسماعيلية .

انتسب منذ نشأته إلى المدارس الإسماعيلية التي كانت منتشرة بكثرة في بلاده . كما تعلم اللغات اللاتينية والفارسية والتركية, فأكسبه ذلك مقدرة على فهم واستيعاب معارف شتى, ودرس تراث الإغريق وترجم كتبهم .

توجه إلى آلموت مقر الدعوة, في ذلك الوقت حيث أكمل دراساته العليا على يد كبار دعاتها وفلاسفتها .

استطاع أن يحتل مكان الصدارة في مختلف العلوم, ويلقي المجالس والمحاضرات ويشرف على المراصد الفلكية .

---

[1] الفرق بين الفرق – ص ٢٦٧.

إسهاماته العلمية:

الإلحاد والعمالة !

رمي العالم الكبير الطوسي بالإلحاد والعمالة، فقد كتب ابن تيمية: - اشتهر هذا الرجل (الطوسي) عند الخاص والعام أنه كان وزيراً للملاحدة الباطنية الاسماعيلية في آلموت، ثم لما قدم الترك المشركون إلى بلاد المسلمين، وجاؤوا إلى بغداد دار الخلافة، كان هذا منجماً مشيراً لملك الترك المشركين هولاكو، أشار عليه بقتل الخليفة وقتل أهل العلم والدين، واستبقاء أهل الصناعات والتجارات الذين ينفعونه في الدنيا... وأنه لما بنى الرصد الذي بمراغة على طريقة الصابئة المشركين، كان أنجس الناس نصيباً منه من كان إلى أهل الملك أقرب ... مثل الصابئة المشركين ومثل المعطلة وسائر المشركين.

ومن المشهور عنه وعن أتباعه الاستهتار بواجبات الإسلام ومحرماته، لا يحافظون على الفرائض كالصلوات، ولا ينزعون عن محارم الله من الفواحش والخمر وغير ذلك من المنكرات..

ولم يكن لهم قوة وظهور إلا مع المشركين الذين دينهم شر من دين اليهود والنصارى .. ومع هذا فقد قيل : (إنه في آخر عمره يحافظ على الصلوات الخمس).

إن تهم إبن تيمية لا تصمد حتى أمام بعض المؤرخين، والذين من بينهم تلاميذ لابن تيمية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، أذكر منهم:

- كمال الدين ابن الفوطي: إنه عالم مؤرخ شاهد القضية (سقوط بغداد)، وحضرها، وأسر فيها، وفي كتابه (الحوادث الجامعة) يتعرض لقضية سقوط بغداد على يد هولاكو وليس لنصير الدين الطوسي اسم في هذه القضية، ولا ذكر أبداً، ويذكر المؤرخون أنه ألف كتابه سنة ٦٥٧ أي بعد الواقعة بسنة واحدة.

- ابن الطقطقي (٦٦٠ -٧٠٩هـ) صاحب كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، يروي الحوادث، (حوادث بغداد)، ولا ذكر في هذا

الكتاب لنصير الدين الطوسي في القضية أصلاً، لا من قريب ولا من بعيد.

- أبو الفداء (٦٧٢ -٧٣٢هـ)، قال في حوادث سنة ٦٥٦هـ، في تاريخه : في أول هذه السنة قصد هولاكو ملك التتر بغداد، وملكها، وقتل الخليفة المستعصم بالله ... ولا ذكر لخواجه نصير الدين أبداً .

- ابن الذهبي، وهو تلميذ ابن تيمية، ولخص كتاب منهاج السنة، يقول الذهبي في حوادث سنة ٦٥٦: كان المؤيد بن العلقمي قد كاتب التتر، وحرضهم على قصد بغداد .. ويترجم نصير الدين الطوسي في كتابه، ولا يذكر شيئاً عن أي تدخل للطوسي في حوادث بغداد أبداً .

- ابن خلدون (٧٣٢ -٨٠٨هـ) : يذكر في تاريخه خبر المستعصم آخر ملوك بني العباس ببغداد .. ثم ذكر ما كان من السنة ضد الشيعة في الكرخ بأمر الخليفة وابنه، وليس في شئ مما ذكر ذكراً لنصير الدين الطوسي .

الرجوع إلى أصحاب ابن تيمية : بالرجوع إلى ثلاثة من أصحابه والمقربين منه، وهم : الذهبي، وابن كثير، وابن القيم، فإننا سنجد الآتي :

- الذهبي : مرّ معنا قبل قليل قوله .

- ابن كثير (٧٠٠ -٧٧٤هـ)، ترجم لنصير الدين الطوسي، من الاخلال بالصلوات وشرب الخمر وارتكاب الفواحش ... وإنما ذكرها نسب إليه من الإشارة على هولاكو بقتل الخليفة، بعبارة ظاهرة جداً في التشكيك في ذلك حيث يقول : ومن الناس من يزعم أنه - الخواجه نصير الدين - أشار على هولاكو بقتل الخليفة، فالله أعلم . لا يقول أكثر من هذا (ومن الناس من يزعم) أنه ولا بد يقصد من الناس ابن تيمية .

ويتابع ابن كثير: «وعندي أن هذا لا يصدر من عاقل ولا فاضل، وقد ذكره بعض أهالي بغداد، فأثنى عليه وقال: كان (الطوسي) عاقلاً فاضلاً كريم الأخلاق».

- ابن قيم الجوزية : لم يكتف بما قاله ابن تيمية بل زاد على ما قاله شيخه أشياء أخرى، فعندما يذكر الطوسي، يقول عنه: نصير الشك، والكفر والإلحاد،

وزير الملاحدة النصير الطوسي، وزير هولاكو، شفى نفسه من أتباع الرسول وأهل دينه، فعرضهم على السيف حتى شفى إخوانه من الملاحدة واشتفى هو ... واستبقى الفلاسفة والمنجمين والطبايعيين والسحرة ... ونَصَرَ في كتبه قدم العالم وبطلان المعاد وإنكار صفات الرب ... واتخذ للملاحدة مدارس ... وتعلم السحر في آخر الأمر فكان ساحراً يعبد الأصنام !

تاب الطوسي عند ابن تيمية، أما عند ابن الجوزية فقد مات الطوسي ساحراً يعبد الأصنام ؟!

الطوسي مناضلاً !

لم يكن نصير الدين عالماً عظيماً فحسب، بل كان مناضلاً كبيراً، عمل على إنقاذ أكبر ما يمكن إنقاذه من حياة الناس وبخاصة العلماء أمثال : المؤيد العرضي الذي أقبل من دمشق، والفخر المراغي الموصلي، والنجم دبيران القزويني، ومحيي الدين المغربي الحلبي، وأصحاب الصناعات، كما عمل على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من أمهات الكتب . قال ابن كثير : (نصير الدين الطوسي هو الذي بنى الرصد في مراغة، ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء، وغيرهم من الفضلاء).

وقال الصفدي: «وابتنى (الطوسي) بمراغة قبة ورصداً عظيماً، واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء».

هبة الله الشيرازي

- لو ناظر ارسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لنبذ حججه خلفه !

يبتدئ أبو العلاء المعري حديثه عن الشيرازي بقوله : وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين .. إلى أن يصل لوناظر .. ولد هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود الشيرازي في بلدة شيراز - إيران، في القرن الرابع من الهجرة . وكانت ولادته في أسرة اتخذت العقيدة الإسماعيلية مذهباً لها، فأبوه كان حجة جزيرة فارس في أول عهد الخليفة الحاكم بأمر الله المبكر، وبسبب نشاطه الملموس في خدمة الدعوة الاسماعيلية أصبح حجة بلاده فارس بعد وفاة أبيه .

جاء المؤيد في الدين إلى مصر مقر الخلافة الفاطمية وأقام بها زهاء ثلاثين عاماً عمل خلالها على نشر العقائد الاسماعيلية عن طريق إلقاء المحاضرات، والمجالس التأويلية .

تقلد المؤيد ديوان الإنشاء، وكان بارعاً في الكتابة بالعربية والفارسية، وعين سنة ٤٥١هـ داعياً للدعاة، إلا أنه لم يمكث في هذه المرتبة طويلاً إذ خانه الوزراء فكادوا له وشغبوا عليه حتى نفي من مصر ثم أعيد إليها وولي رئاسة الدعوة ثم عزل وولي ديوان الإنشاء مرة ثانية، وعاش حتى توفي في القاهرة سنة ٤٧٠هـ .

قام المستشرق الروسي إيفانوف بنشر كتابه (المرشد إلى الأدب الإسماعيلي) الذي جاء فيه على ذكر المؤيد في الدين، فعدد الكتب التي ألفها والأبحاث التي كتبها، والمجالس التي عقدها، وقال إن المؤيد في الدين كان عالماً عظيماً وكاتباً بارعاً في الخوض في كافة المواضيع العقائدية .

كان المؤيد شاعراً قوياً صور في شعره العقائد الاسماعيلية تصويراً تاماً . كما بحث في مبدأ التأويل وإعجاز القرآن، والرأي، والقياس، فقال :

إن كـــان إعجـــاز القـــرآن لفظـــاً

ولـــم ينـل معناه منـــه حظـــاً

صادفتـــــم معقـــــوده محلـــولاً

مـــن أجـــل أن أنكـــرتم التـــأويلا

مجمل القول أن المؤيد كان من أكبر علماء عصره، واسع الثقافة، ملماً إلماماً تاماً بجميع العلوم التي عرفت في العالم العربي الإسلامي في ذلك الوقت . ويعتبر المؤيد أستاذ الدعوة في اليمن والهند، كما يعد أستاذ الفيلسوف ناصر خسرو، ولقد خلف المؤيد مؤلفات قيمة، منها :

١ - المجالس المؤيدية ويضم ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة الاسماعيلية التي كان يلقيها المؤيد .

٢ - ديوان المؤيد في الدين : وهو عبارة عن مجموعة من القصائد الشعرية .

٣ - السيرة المؤيدية، ويتحدث فيها عن الحياة السياسية والاجتماعية في

فارس والعراق ومصر من سنة ٤٢٩هـ إلى سنة ٤٥٠هـ ويعتبر سجلاً للوثائق التي تبودلت بين المؤيد وأمراء العرب، وبينه وبين آخرين .

٤ - ترجمة أساس التأويل إلى الفارسية عن القاضي النعمان.

الخاتمة

شكلت الإسماعيلية، في سياقها التاريخي حركة اجتماعية شمولية واسعة، وامتد نشاطها إلى مناطق عديدة من البلدان العربية – الإسلامية، وكان هدفها السياسي القضاء على الدولة العباسية، وإقامة دولة إسماعيلية.

رفعت شعارات ضد الظلم، وانضوى تحت لوائها الكثير من المقهورين، والمعدمين، وقادة الفكر والمبدعين. كما أنها خلقت قادة سياسيين وعسكريين، وأنجبت مفكرين وعلماء كان لهم قصب السبق في تحقيق الكثير من الإنجازات العلمية والفلسفية الهامة.

أقامت الحركة دولاً كانت رائدة، في مجال بناء العلاقات الاجتماعية – الاقتصادية، على أسس كفلت العيش الأفضل للأغلبية الساحقة من مواطنيها.

تعتبر الإنجازات التي حققتها الحركة، على الصعد كافة، مكوناً أساسياً، من مكونات الحضارة العربية – الإسلامية، هذه الحضارة التي رفدت الحضارة الإنسانية وأغنتها.

حملت الحركة الإسماعيلية كأي ظاهرة اجتماعية، تناقضاتها الداخلية والخارجية.

التناقضات الداخلية

تمثلت بأمور، منها:

- الحروب الدامية التي نشبت بين الدولتين: القرمطية، والفاطمية، وقد استمرت هذه الحروب لفترات طويلة.

- ارتد العديد من القبائل عن الدعوة الفاطمية، في المغرب، وخلعوا ولاء الطاعة، واعلنوا ولاءهم للدولة العباسية، وحدث مثل ذلك في اليمن وغيرها.

- ظهرت صراعات، وخلافات حادة، داخل الأسرة الفاطمية الحاكمة، في مصر، وبخاصة زمن الخليفة المستعلي، وأنقسمت إلى اسماعيلية مستعلية، واسماعيلية نزارية، وانقسمت الأولى إلى أكثر من فرقة.

التناقضات الخارجية

لعبت الحرب التي شنتها الدولة العباسية، والأسلحة التي استخدمتها، في هذه الحرب، من سلاح، ومال، وفكر، ضد الحركات الباطنية، في مقدمتها الإسماعيلية، وأدت بالتالي لإضعافها.

كان للسلاجقة الدور الأول، في القضاء على الدولة القرمطية.

وجه الغزو المغولي ضربة قاسية للحركة وبخاصة، بعد انتصار المغول على قلعة آلموت.

وبغض النظر عن الضربات الموجعة التي سددها الإسماعيليون للصليبين، فإن الغزو الصليبي أضعف العالم العربي – الإسلامي، وبالتالي أثرّ سلباً على الحركة الإسماعيلية.

وقبل أن تسقط الدولة الأيوبية سنة ١٢٥٠ كانت قد قضت على الدولة الفاطمية، وشنت حملة مطاردة ضد الإسماعيلية، في مصر..

استفاد المماليك، في بادئ أمرهم من الحركة الإسماعيلية، ولكنهم قلبوا لها ظهر المجن، فيما بعد، ومن المعلوم أن المماليك أقاموا دولتهم، في مصر سنة ١٢٥٢م، وامتدت سيطرتهم فيما بعد إلى اليمن، وسورية، وفلسطين..

خرج العرب من اسبانيا سنة ١٥٩٤، وتعرضوا لمحاكم تفتيش رهيبة، في إسبانيا، وفي بعض البلدان الأوربية.

بدأ العثمانيون باحتلال البلدان العربية سنة ١٥١٦، ثم فرضوا سيطرتهم عليها، وصارت اسطمبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية، وقد شن العثمانيون حرباً لا هوادة فيها، ضد الإسماعيلين والعلويين، في سورية، واليمن..

قام المستعمرون البرتغاليون باحتلال أجزاء واسعة من جنوب شبة الجزيرة العربية أواسط القرن السادس عشر الميلادي..

شكل ما سبق خارطة جديدة للعالم العربي – الإسلامي، ليس من حيث الجغرافيا الطبيعية فقط، وإنما من حيث الجغرافية الاجتماعية – السياسية.

كانت التناقضات الداخلية والخارجية السابقة الذكر، هي الظروف

الذاتية والموضوعية التي أدت إلى إخلاء الساحة النضالية، من الحركة الإسماعيلية، وبالتالي خلقت قوى محركة جديدة، في المجتمع الجديد. ومع أن الحركة قد أخلت الساحة فهل انتهى تأثيرها؟

تؤكد وقائع التاريخ أنه لا يمكن أن ينتهي التأثير الجدي لأي حركة اجتماعية واسعة، كالإسماعيلية، بل سيظل هذا التأثير مستمراً في مسيرة المجتمع الذي نمت ونضجت وتوسعت فيه، فعدا عن التأثير العلمي والفلسفي الذي تركته الحركة في التراث العالمي، فأنها أبدعت في العمل التنظيمي، وقد تأثر بإسلوب العمل كثير من الجمعيات والحركات السرية، في أوربا، مثل جمعية (فرسان المعبد)، وجمعية (الشعلة البافارية) وغيرهما..

أشار فون هامار إلى ذلك الشبه بين تعاليم الإسماعيلية، وجمعية فرسان المعبد، وأكده كلافل على نحو أوضح، حين قال:

(يرينا المؤرخون الشرقيون في عصور مختلفة أن جمعية فرسان المعبد، كانت ذات علائق وثيقة مع الإسماعيلية، ويؤكدون التماثل بين الطائفتين، وأنهما اتبعتا نفس النظام، ونفس المراتب. فكانت مراتب الفدائيين، والرفاق، والدعاة، في أحدهما تقابل مراتب المبتدئ والمنتهي، والفارس، في الثانية، وإن كليتهما كانت تملك حصوناً عديدة).

أسس فيسهاوبت سنة ١٧٧٦م جمعية الشعلة البافارية، وكان غوته الشاعر العبقري عضواً فيها، كما كان ميرابو من دعاتها، وقد وجدت بين أوراقه خطة الثورة الفرنسية التي قامت سنة ١٧٨٩م.

أكد الباحثون أن فيسها وبت لم يكن مبتدعاً لتلك الطريقة المدهشة، التي كانت تعمل وفقاً لها جمعية الشعلة البافارية، بل نشأت في الشرق، وابتدعها ذكاء الفيلسوف الشرقي عبد الرحمن بن ميمون القداح، وقد طبقها فيسهاوبت بنجاح.

أقر المجتمع الدولي بفضل الإمام الثامن والأربعين محمد شاه آغا خان، لما أسهم به في سبيل العالم الإسلامي، وللجهود التي بذلها في تعزيز التفاهم

الدولي، ولا سيما حين كان رئيساً لعصبة الأمم ١٩٣٧ – ١٩٣٨، وهي المنظمة التي سبقت الأمم المتحدة التي أسست سنة ١٩٤٥. وساهم في بناء الكثير من المساجد الإسلامية والكنائس المسيحية، والمعابد الهندوسية، في العالم.

وجاء في وصيته التي فُتحت سنة ١٩٥٧، قوله: (أنني مقتنع بالنظر إلى ظروف العالم التي طرأت عليها تغيرات جذرية، وتحولات كبرى بأن صالح الشيعة الإسلامية الإسماعيلية تقضي بأن يخلفني في الإمامة رجل شاب، نشأ وتربى في سياق العصر الحديث بحيث يمكنه أن يأتي إلى منصب الإمامة بنظرة جديدة إلى الحياة).

وفي عام ١٩٦٧ أنشأ كريم شاه (آغا خان ا لرابع) مؤسسة لا طائفية (المؤسسة الآغا خانية) أخذت على عاتقها مهمة النهوض بالأعمال الاجتماعية والاقتصادية عن طريق الأعمال الخيرية، وعلى الأخص في آسيا، وافريقيا.

وتسعى المؤسسة أيضاً إلى الاشتراك مع منظمات أخرى وطنية ودولية، في تنفيذ عدد من البرامج في البلدان النامية. وهي تتعاون مع برنامج الأمم المتحدة للتنمية، ومنظمة الصحة العالمية، والوكالة الكندية للتنمية الدولية بوصفها منظمة غير حكومية. كما تتعاون مع منظمات دولية أخرى، منها: اليونسيف، وبرنامج الغذاء العالمي.

وموجز القول: إن أنشطة المؤسسة الآغا خانية تشمل: برامج في مجالات التربية، والصحة، والتغذية، والتنمية الريفية، وإدارة الموارد الطبيعية المتجددة.

وهناك أيضاً مؤسسة الآغا خان الثقافية، وهي تستهدف دعم، وتشجيع، وتعزيز المشروعات، والبحوث والتدريب، وتسهم بقسط وافرٍ في تطوير البيئة المادية والثقافية، والفكرية للبلاد النامية في آسيا وأفريقيا.

ومن الأنشطة الرئيسية لهذه المؤسسة تخصيص جائزة الآغا خان للعمارة، وهي تسعى إلى تبيان الامتياز المعماري في العالم الإسلامي، وغير ذلك من الأنشطة الثقافية.

يضم نظام التعليم الذي يرعاه الآغا خان أكثر من ٣٠٠ مؤسسة، وبرنامج،

من مراكز الدعاية النهارية، إلى معاهد التعليم الجامعي، وينتفع بها آلاف الطلاب معظمهم من غير الإسماعيليين.

وفي جوابه على أحد وسائل الإعلام الإندونيسية بتاريخ ١٩٩٠/١٠/٢١، قال كريم شاه: (ينبغي على العالم الإسلامي، أن يتجرأ، ويواجه التحديات، مثل:

- القلق حول نوعية الحياة.
- استحالة أن تواجه تحديات القرن العشرين، من خلال التمسك بالطقوس الدينية وحدها!

وأخيراً: تطورات وسائل الاتصالات والمواصلات، وغدا العالم الفسيح، وكأنه قرية صغيرة وما زال لأعداء الإنسان دور مدمر للحياة، ويحاولون الإبقاء على العبودية، والاستعباد!! إلا أن التاريخ القديم، والحديث يبرهن لكل ذي بصيرة أنه يمكن للمظلومين أن ينتصروا على ظالميهم أنى وكيفما كانوا، وذلك بتوحيد نضالاتهم. وقد كدس الثوريون خبرات هامة ثبتت نجاعتها، في المعارك التي خاضوها.

يشكل التراث النضالي الذي خلفه لنا الأجداد، وفي مقدمتهم الإسماعيليون، واحدة من المنارات الهامة، التي يهتدي بها المناضلون.

المصادر والمراجع

١- شرح نهج البلاغة - ابن أبي الحديد.

٢- تاريخ العراق القديم - طه باقر.

٣- الإمتاع والمؤانسة - أبو حيان التوحيدي.

٤- الملل والنحل - الشهر ستاني.

٥- مروج الذهب - المسعودي.

٦- حوادث سنة ٣٢ هجرية - الطبري.

٧- تاريخ الخلفاء - السيوطي.

٨- إيران في عهد الساسانيين - ترجمة يحيى خشاب.

٩- من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام - بندلي خوري.

١٠- تاريخ الطبري.

١١- تاريخ مصر الاجتماعي – الاقتصادي - أحمد صادق سعد .

١٢- النزعات المادية في الفلسفة العربية - الإسلامية د. حسين مروة.

١٣- خطط الشام - محمد كرد علي.

١٤- أخبار القرامطة - ثابت بن سنان.

١٥- الإسلام والثورة - د. محمد عمارة.

١٦- دراسات في العصور العباسية المتأخرة - عبد العزيز الدوري.

١٧- العقد الفريد.

١٨- الإمام علي صوت العدالة الإنسانية - جورج جرداق.

١٩- الأغاني - أبو الفرج الأصفهاني.

٢٠- مجلة دراسات عربية - نايف بلوز.

٢١- تاريخ العراق - عبد العزيز الدوري.

٢٢- أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم - المقدسي.

٢٣- الحيوان - للجاحظ.

٢٤- البحث عن العقل - حوار مع فكر الحاكمية والعقل، كتاب الهلال - العدد ٥٦٠ - آب ١٩٩٧.

٢٥- التنبيه والإشراف - المسعودي.

٢٦- الفرق بين الفرق - عبد القاهر البغدادي.

٢٧- مالك بن أنس إمام دار الهجرة لأبي زهرة، ومالك إمام دار الهجرة للجندي.

٢٨- ثمرات الأوراق - ابن الحموي - مصر.

٢٩- الجامع الصغير.
٣٠- البهت الشريف - رواه المفضل بن عمر الجعفي. تحقيق وتقديم د. مصطفى غالب.
٣١- إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي.
٣٢- الكتاب والقرآن قراءة معاصرة - د. محمد شحرور.
٣٣- أخبار القرامطة - ابن الجوزي - تحقيق د. سهيل زكار.
٣٤- مذاهب الإسلاميين - د. عبد الرحمن بدوي.
٣٥- تاريخ الدولة الفاطمية - د. حسن ابراهيم حسن.
٣٦- إسلام بلا مذاهب - د. مصطفى الشكعة.
٣٧- الخطاب الإسماعيلي في التجسيد الفكري الإسلامي المعاصر.
٣٨- المجالس المؤيدية - المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، تحقيق وتقديم د. مصطفى غالب.
٣٩- تأويل الدعائم للقاضي النعمان.
٤٠- عقائد الإمامية - الشيخ محمد رضا المظفر.
٤١- في التصوف الإسلامي - أبو العلا عفيفي - القاهرة ١٩٤٧.
٤٢- قوت القلوب - أبو طالب المكي - القاهرة ١٩٣٢ .
٤٣- العقيدة والشريعة في الإسلام - غولد تسهير.
٤٤- في الفلسفة الإسلامية منهج و تطبيق، د. إبراهيم مدكور - القاهرة ١٩٦٨ .
٤٥- أبو يزيد البسطامي - عبد الرحمن بدوي - شطحات الصوفية.
٤٦- الكشكول الكامل - بهاء الدين العاملي .
٤٧- أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة، برنارد لويس - ترجمة حكمت تلحون.
٤٨- تاريخ الدولة الفاطمية - د. حسن ابراهيم حسن.
٤٩- من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام بندلي جوزي.
٥٠- الثائر الحميري - الحسن بن الصباح - د. مصطفى غالب.
٥١- بيان مذاهب الباطنية وبطلانه - الديلمي.
٥٢- معجم البلدان - ياقوت بن عبد الله الحموي - دار الفكر - بيروت - بلا تاريخ.
٥٣- الكامل في التاريخ لابن الأثير.
٥٤- فضائح الباطنية للغزالي.
٥٥- المسالك والممالك - ابن حوقل.
٥٦- الزنج - فيصل السامر.
٥٧- بغية الطلب في تاريخ حلب - ابن العديم .
٥٨- اتعاظ الحنفاء - المقريزي - تحقيق د. سهيل زكار.
٥٩- أخبار القرامطة - المقريزي - تحقيق د. سهيل زكار.
٦٠- تجارب الأمم وتعاقب الهمم - مسكويه.
٦١- سفرنامة - ناصر خسرو - ترجمة يحيى خشاب.
٦٢- المسالك والممالك - ابن حوقل.

٦٣- مقدمة في التاريخ الاقتصادي - عبد العزيز الدوري.
٦٤- النجوم الزاهرة.
٦٥- المنتظم - ابن الجوزي .
٦٦- دراسات في العصور العباسية المتأخرة - عبد العزيز الدوري.
٦٧- الإسلام والثورة - د. محمد عمارة.
٦٨- الإشارة في محاسن التجارة - أبو الفضل الدمشقي.
٦٩- أعلام الإسماعيلية - د. مصطفى غالب.
٧٠- الدور الإنساني للحضارات العربية ومواضع التزوير في التاريخ العربي ـ أحمد عبد الحميد الحسين ـ
٧١- سنان راشد الدين ـ شيخ الجبل الثالث ـ د. مصطفى غالب.
٧٢- الحقيقة في وسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ـ د. عارف تامر ـ
٧٣- رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ـ
٧٤- تاريخ العلوم عند العرب ـ عمر فروخ.
٧٥- رسائل إخوان الصفاء طبعة مصر ـ
٧٦- زوبعة الدهور ـ مارون عبود. قدم لها فاروق سعد ـ بيروت ١٩٨٣.
٧٧- فضائح الباطنية ـ أبو حامد الغزالي ، حققه وقدم له عبد الرحمن بدوي ـ القاهرة ١٩٦٤.
٧٨- مقدمة ابن خلدون ـ
٧٩- تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ـ فيليب حتي ـ
٨٠- تاريخ الحروب الصليبية ـ نقله إلى العربية ـ د. السيد الباز العريني ـ

81- The Oxford English Dictionarg مادة Assasin طبعة 1978.

82- The Travels of Marcopolo – Iondon 1967 – p – 13- 77

٨٣- أعلام الإسماعيلية – د. مصطفى غالب.

٨٤- حي بن يقظان: ابن سينا وابن طفيل، والسهروردي، تحقيق وتعليق أحمد أمين.

٨٥- السهروردي – سامي الكيالي.

٨٦- كتاب المخلاة – بهاء الدين العاملي نسقه وحققه ووضع هوامشه، محمد خليل الباشا – بيروت ١٩٨٥.

٨٧- حكمة الإشراق – السهروردي – طهران ١٨٩٨.

٨٨- أصول الفلسفة الإشراقية عند السهروردي، د. محمد علي أبو ريان - مصر ١٩٨٧.

٨٩- حكمة الإشراق.

٩٠- هياكل النور.

٩١- السهرودي - مصطفى غالب.

٩٢- كتاب التلويحات للسهرودي.

٩٣- المستطرف الجديد - هادي العلوي.

٩٤- الفتوحات المكية - محي الدين بن عربي.

٩٥- ابن رشد وفلسفته - تقديم د. طيب تيزيني.

٩٦- ظهر الإسلام - أحمد أمين.

٩٧- تاريخ الفلسفة العربية – حنا فاخوري وخليل الجرر لبنان ١٩٦٣.

٩٨- صورة عن رسالة وجهها الإمام الخميني إلى ميخائيل غورباتشوف - مؤرخة في ٢٢ جمادى الأول ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩٨٨/١٢/٣٠.

٩٩- أخبار مكة في قديم الدهر وحديث - محمد بن اسحاق بن العباس الفاكهاني ابو عبد الله – دار خضر – بيروت ١٤١٤ - تحقيق د. عبد الملك عبد الله دهيش.

١٠٠- سياسة نامة أو سير الملوك - نظام الملك حسين الطوسي – قطر ١٤٠٧هـ – تحقيق: يوسف حسين بكار.

الفهرس

الإهداء 5

المقدمة 7

الفصل الأول

الإسلام 9

- العرب قبل الإسلام 11
- ظهور الإسلام 11
- وفاة النبي وخلافة عثمان 12
- علي بن أبي طالب 14
- الدولة الأموية 17
- الجزية والخراج 18
- الإقطاع 19
- الدولة العباسية 19

الفصل الثاني

البناء الفكري 25

- التوارث 27
- قضية الإنسان 28
- الظاهر و الباطن 31
- محاربة الباطنية 33
- الإرهاب الفكري 35
- الحشاشون 43

الفصل الثالث

التأويل وصعود الفلسفة 45

- المعارضة وقضية الإنسان 47
- الشيعة 47
- الإنسان ... والجنة 49
- المعتزلة 50
- الأصول الخمسة 52
- الصوفية 53
- الشطحات 58

الفصل الرابع

الحركة الإسماعيلية 61

- نسب الإسماعيلية 63
- الدولة الإسماعيلية ومقاومة الغزاة 67
- القرامطة 68
- الدولة القرمطية 71
- الدولة الفاطمية 90

الفصل الخامس

رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء 109

- من هم أخوان الصفا 111
- الأخوان والشريعة 114
- المعرفة والنفس 115
- الفلسفة في رسائل 115
- الحرية الدينية 117
- التأويل 122

الفصل السادس 127

الإسماعيليون والتصوف

- السهروردي 130
- ابن عربي 135
- وحدة الوجود 139
- الإنسان الأكبر 140

الفصل السابع 145

الإسماعيليون والمرأة

- موقف القرامطة من المرأة 147
- ابن عربي والمرأة 148
- آغا خان والمرة 148

الفصل الثامن 149

علماء & فلاسفة

- ابن سينا 151
- أبو حنيفة النعمان المغربي 160
- ابن الهيثم 162
- حميد الدين الكرماني 166
- أبو حاتم الرازي 167
- أبو عبد الله النسفي 168
- جعفر بن منصور اليمني 168
- أبو يعقوب السجزي 169
- نصير الدين الطوسي 169
- هبة الله الشيرازي 172

الخاتمة 175

المصادر والمراجع 181